رواية

مكتبة ٨٠٣

سمر يزبك

مقام الريح

المتوسط

سمر يزبك

مقام الريح

منشورات المتوسط

مكتبة telegram @t_pdf

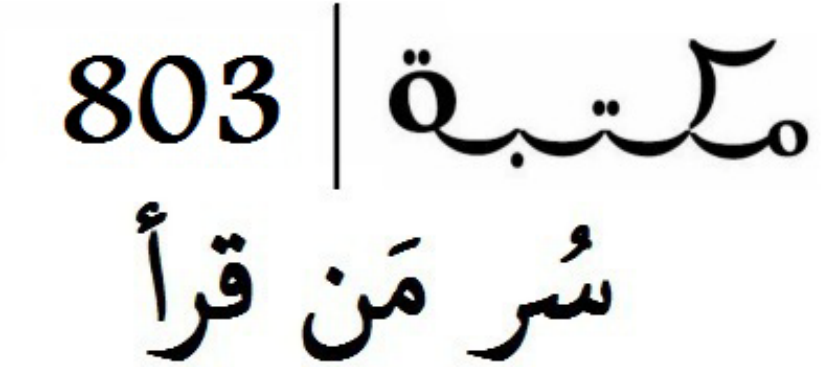

مجرَّد ورقةٍ صغيرةٍ، تمنعه رموشُه المتشابكة من رؤيتها تحت شمس الظهيرة!

ورقة شجرٍ ليس إلَّا! مُفصَّصةٌ وخضراءُ، تظهر كستارةٍ أمام عَيْنَيْه حين يحرِّك جفنَيْه ببطءٍ وصعوبةٍ. ورقة شجرٍ تمسُّ رموشه الطويلة الملطَّخة بالطين! ورقةٌ تمنعه من رؤيتها بوضوحٍ حبيباتُ ترابٍ ناعمةٌ، تسبح في ماء عَيْنَيْه، تحكُّهُ وتَحرِقُهُ. لو أعاد تحريك جفنَيْه وفَتْحَهُما، لسقطت الورقة في عينه اليسرى. العالَم كلُّه هو تلك الورقة. لا صوت، لا رائحة. لا يشعر بعينه الأخرى. ألا يزال حَيًّا؟ ربَّما! ألديه جسدٌ؟ وأين جسده، إذنْ؟ شعوره بوجوده لا يتجاوز المساحة الضيِّقة من الضوء الخافت المحجوب بخطوطٍ سوداء، لا يهمُّ إن كانت تلك رموشه أم كوابيسه، فالعَتَمَة سرعان ما تحلُّ ثانيةً في داخله. يتهاوى ببطءٍ في مكانٍ عميقٍ ومجهولٍ. تنعدم جاذبيَّته، ويحسُّ بتأرجحِ رأسه، ربَّما هو مَنْ يتهاوى في قبرٍ؟ أهذه جنازته؟ أهذا رأسه هو؟

سقطت ورقة الشجر ليرى عيناً، هي عينه، تطوف في الهواء، وتراقب تهاوي جسدٍ ما في حفرةٍ. جسده في تابوتٍ لا يراه، لكنَّه يعرف أنَّه جسده، والحفرة ليست بالعمق الكافي للخوف، لكنَّه عمقٌ يكفي للتلاشي والتحلُّل بعد إهالة التراب، كانت عيناً واحدةً، إذنْ.

حشد من خيالات البشر يتحلَّقون حول الحفرة! يستعذب إحساسه بالتأرجح في الهاوية، ويلمح جذور الأعشاب الدقيقة والمتشعِّبة في طبقات

التربة، جذورٌ بيضاءُ رفيعةٌ وثخينةٌ، هشَّمَتْها المجارف، ويَشُمُّ رائحة الفجر من نهايات الجذور، ويرى بضع ديدانٍ زهريَّةٍ تتهاوى على حوافِّ التابوت، ويتذكَّر مَلمَسها اللَّدْن، وهو يلاعبها بين أصابعه. أين حصل ذلك؟ متى جمع ديداناً زهريَّةً، وصَفَّهَا فوق صخرةٍ كبيرةٍ، ونظَّم سباقاً فيما بينها؟ لا يعرف! لكنَّ رؤية الديدان الراقصة ترافقه في تهاويه هذا، كان قد طمْأَنَه. ثمَّ تنقشع الرؤية، إنَّها المَقْبَرَة المجاورة للمَقَام وشجرته العملاقة. لا يزال هو هُنا، أين؟ وما هو هذا الـ "هُنا"؟ إنَّه هو، وليس شخصاً آخرَ، لم ينفصل عن وجوده. يرى نفسه كعينٍ رائيةٍ. يرى النساء خلف الرجال في المَقْبَرَة يتجمَّعنَ، وتغطِّي رؤوسَهنَّ طرحاتٌ بيضاء، يلمح امرأةً بينهنَّ ترمي منديلها الأبيض عن رأسها، وتتقدَّم بين الرجال تدفعهم، وتصرخ. كانت أُمَّه، كيف عرف أنَّها أُمُّه؟ شكلُها غير واضحٍ! لديه عائلةٌ، إذنْ! ولكنَّه لا يشعر بشيءٍ، كان مثل طائرٍ يُحلِّق، يراهم وهو مُدرِكٌ أنَّه ليس بطائرٍ. هو ليس إلَّا عيناً واحدةً، ليس عينَيْن حتَّى! ويستطيع رؤية الأشكال بأبعادها الثلاثيَّة، إنَّه عينٌ تُحلِّق فوق مَقْبَرَة القرية؛ قريته، ويرى نفسه ينزل في حفرةٍ، ويسمع أصوات نحيبٍ وخيالاتِ امرأةٍ، يعتقد أنَّها أُمُّه من حركات تنقُّلها البهلوانيَّة المعتادة وقفزاتها التي تشبه السُّخْط. أصوات زغاريد وعويل، إطلاق رصاصٍ وتمتماتٌ. هذه أصواتٌ أَلِفَها في الجنائز. لا يسمع النحيب والعويل المعتادَيْن، ولا يرى النساء تشقُّ الصدور. يعتقد أنَّ هذا المشهد ليس بغريبٍ عنه، وأنَّه سمعه ورآه في زمنٍ ما، أصوات الهياج والهَرْج التي تلَتْ لاحقاً تبدو من نوعٍ مختلفٍ. ذلك هو أبوه، وأُخته الأرملة ببطنها المنتفخ، لكنَّ الرؤية غائمةٌ، لأنَّه يحلِّق فوقهم، ولا يستطيع النزول إلى الأرض، كان هو عيناً طائرةً في الهواء تهبط، لترى إن كانت تلك جنازته أم جنازة أخيه.

أخفق في التحرُّك وتحديد مَنْ كان صاحب القبر، فهو مشدودٌ بحبالٍ غير مَرئيَّةٍ في السماء، ومن تحته جموع المتجمهرين تقف، ثمَّ تتحرَّك بعدَّة اتِّجاهات، يحرِّكون شفاههم، ولا يسمعهم. يريد أن يصرخ، ويقول إنَّه هناك، وإنَّه لم يمت، ولا يريد أن يموت، يودُّ لو يُخبرهم أنَّ مَنْ ينزل في تلك الحفرة هو وحشٌ ما، أو ربَّما شخصٌ غريبٌ ليس هو، لكنَّ أحداً لا يستمع إليه. يعرف هذه الجنازة، ولا يستطيع التفريق إن كانت لأخيه أم له، يكرِّر لنفسه غاضباً. ينظر مِنْ حوله، فيرى أعضاء بشريَّةً أخرى مقيَّدةً بحبالٍ لا مَرئيَّةٍ في السماء، وهذه الأعضاء تحدِّق في حُفرٍ كثيرةٍ، امتلأت بها قمم الجبال المُطِلَّة على البحر، ثمَّ اختنق لوَهْلَةٍ، وصحا. كيف يمكن لعينٍ أن تختنق؟

إنَّه مجرَّد عينٍ واحدةٍ ترى تلك الحفرة. استطاع، أخيراً، سماع غناء أُمِّه. هذا صوتها! تُغنِّي أُمُّه حيناً، وتُطلِق أنيناً حادَّاً حيناً آخرَ، ويراها تصرخ، يعرف أنَّها تصرخ باسمه، لكنَّه لا يسمع! يختفي الصوت عندما تناديه، وكانت تنظر إلى السماء، تعرف أنَّه يراها. صوت أُمِّه يرتفع ويناديه، هذا يعني أنَّه ميتٌ وهو يشاهد روحه تتأرجح في السماء، أراد أن يصفِّر، لتتعرَّف أُمُّه عليه، لكنَّه كان مجرَّد عينٍ، ولا يَملُك حتَّى أن يصفِّر كعادته مثل شُحْرُورٍ، ورأى العَلَمَ جيِّداً؛ أحمر أبيض أسود، في الوسط نجمتان. ما لونهما؟ لا يعرف! ثمَّ رأى يَدَي أُمِّه تقبضان على التابوت، أزاحتا العَلَمَ، وكانت أصابعها المتشقِّقة قد تحوَّلت إلى شاشةٍ عملاقةٍ، تنغرس في الخشب، لتصبح كالمسامير جزءاً من التابوت، ثمَّ اختفى الصوت والألوان، وبقي جسد أُمِّه ملتصقاً بالتابوت، حينها أدرك أنَّه ليس الميت، لأنَّه تذكَّر وفي لحظةٍ ما؛ اللحظة التي حرَّك فيها جفنَيْه، ورأى ورقة شجرٍ؛ أنَّ تلك الجنازة كانت لأخيه، وأنَّ ما رآه ومَنْ نزل في تلك الحفرة لم يكنْ هو، ثمَّ

فتح عينه الأخرى، ورأى من جديدٍ، كانت الورقة قد تمايلت وسقطت عن وجهه، وانبسطت الرؤية أمامه. يكتشف أنَّه يحتفظ برأسه سليماً فوق جسده، وأنَّ تلك الورقة وغيرها من أوراق الشجر تغطِّي ما شَعَرَ به مِنْ جسده. لقد استطاع تحريك رأسه مرَّة أخرى ورأى الشجرة! الشجرة الضخمة التي تبدو بعيدةً، ليست بعيدةً بالقَدْر الكافي حتَّى تبدو وَهْماً، وهي ليست حُلْماً أو كابوساً، اتَّسعت حَدَقَتَا عَيْنَيْه، وغَمَرَهُ الضياء بَغْتَةً، إنَّه حَيٌّ، ولقد كان هنا قبل قليلٍ، لا يعرف، تماماً، ما هو هذا "القليل"، لكنَّه هنا! السماء فوقه والأوراق الصفراء والرماديَّة والمتحلِّلة تغمره، وورقةٌ وحيدةٌ خضراءُ أمام عينه اليسرى. لا يوجد صوتٌ. صمتٌ مُطبِقٌ. حينها يعرف أنَّه لا يستطيع التحرُّك، وأنَّه يَشُمُّ روائح احتراق مألوفة، وعرف أنَّه يَملُك يَدَيْن، ويشعر بهما، ثمَّ استطاع أن يسمع صوت خشخشة الأوراق وتفتُّتها، وأعاد نفض جسده بحركةٍ ضعيفةٍ، كانت كافيةً ليكتشف أنَّ عينه الأخرى ترى، جسده كان يبدو للبعيد الناظر من السماء، مثل كومةٍ من الأوراق والأغصان تبرز منها فتحتا عينَيْن بقناعٍ من الطين والدم. بياض عَيْنَيْه يوحي، فقط، أنَّ هناك جسداً بشريّاً في الخَلَاء المُوحِش لقمَّة جبلٍ، تعلوها شجرةٌ ضخمةٌ.

حتَّى تلك اللحظة لم يكن يعرف ذلك، لا يعرف أنَّه مدفونٌ تحت الأوراق والتراب والأغصان. كان يعي، فقط، أنَّه يتنفَّس وله عينان ويَدَان، ثمَّ يسمع ضربات قلبه، ويُطلِق تنهيدةً عميقةً، تُحرِّكُ عظام صدره، ويسمع صوت الخشخشة من جديدٍ. هو لا يزال هنا فوق هذه الأرض، لكنَّه لا يشعر بقَدَمَيْه، وهناك سيخٌ من النار يَقصِم ظَهْره، أو ربَّما من الثلج، لكنَّه حارقٌ، هو لا يعرف ما هو، لكنَّه لَزِجٌ، وكأنَّه مدفونٌ من منتصف جِذْعه

داخل حفرةٍ من الإسمنت، لا يستطيع أن ينهض، ليتفقَّد جسده، ولا يزال يعتقد أنَّه حَيٌّ.

أَرْبَكَه وجودُ الشجرة، ربَّما تكون شجرة مَقَام القرية، أو شجرة بيتهم! وربَّما يكون هو مَنْ ينزل في الحفرة، لم يتأكَّد بعد من خيالاته رَغْم ذكرى جنازة أخيه. إنَّها نفسها الشجرة التي عرفها منذ طفولته، لقد تذكَّر بعد مُضِيِّ ساعةٍ من التعرُّق والتحديق في الشمس التي ترتفع في السماء أنَّ الشجرة كانت هنا على خطِّ الجبهة، وهو كان هنا ينظر إليها مفتوناً كعادته، حاملاً بندقيَّته، وإلى جانبه ثُلَّةٌ من رفاقه الجنود!

قرَّر أن يتحرَّك رَغْم أنَّه استعذب لِلَحظةٍ السقوط في نُعَاس الهَاوِيَة. فَنَفَضَ جسده مرَّة أخرى، واكتشف أنَّه لا يستطيع التحرُّك، وأخافه الصمت، وسمع ضربات قلبه التي كادت أن تثقب طبلَتَيْ أُذُنَيْه. مِن أين يأتي هذا الصمت؟ أين صوت الطيور والشجرة؟ على كلِّ شجرةٍ أن تحمل صوتها الخاصَّ، وصوت رفاقها من الطيور، مَنْ قال له هذه الجملة؟ يلمح إلى يمين الشجرة دخاناً كثيفاً، ثمَّ يتَّجه بنظراته إلى اليسار، فيرى حريقاً. شيءٌ ما يحترق، ورائحة الشِّواء نفسها. أغمض عَيْنَيْه، إنَّها الظهيرة الحارقة التي يكسر هواء الجبل حِدَّتها. انهمرت قطرات العَرَق بغزارةٍ فوق جبهته، وبلَّلت جفنَيْه، وحرقت عَيْنَيْه، ثمَّ منعتْهُ من الرؤية لدقائقَ، ثمَّ فكَّر أن يتنفَّس بعمقٍ، ليشعرَ بعضلات بطنه، ويدفع بنَفْسه ليتحرَّك؛ كان صدره يعلو بشهيقٍ وزفيرٍ، فتعلو معه كومة الأوراق، واستطاع أن يتزحزح، ويَقلِب جزءاً منه، وببطءٍ شديدٍ، تحرَّك جِذْعه أخيراً، وعندما دفع بنَفْسه للجهة الأخرى، فكَّر أنَّها قد تكون الهاوية، فالحافَّة ليست بعيدةً، لكنَّه لم يُبالِ، دفعَتْهُ قوَّةٌ هائلةٌ من أحشائه، وحرَّكت جسده، كلُّ ما جناهُ مِن

ذلك كان أنَّه استدار على جنبه، وصار وجهاً لوجهٍ أمام الشجرة؛ انزاحت الأوراق والأغصان عن صدره، وحينها شعر بالألم الحارق الذي أصابه بالأمل فجأةً، إنَّه كامل الأعضاء، وحركة الألم تدور بين رأسه وأصابع قَدَمَيْه، لقد أدرك الألمُ كاملَ جسدهِ، وهذا جيِّد بالنسبة إليه. أدار رأسه مُحدِّقاً بالشجرة، فسمع الخشخشة وأصوات انكسارِ عيدانٍ يابسةٍ، ثمَّ حلَّ الصمت ثانيةً، ورأى الصورة! صورته والجنود الآخرون يتطايرون في الهواء، عندما انفجرت القذيفة، وقبل أن يعاوِد غيابه عن الوعي كان قد سمع صوت أُمِّه المبحوح، وهي تناديه: يا عليّ! ثمَّ عرف، عرف جيِّداً، أنَّ تلك الورقة الصغيرة الخضراء، كانت ورقةً لشجرة سِنْدِيَان.

ما إنْ سحبه التثاقُل والغَرَق في الظُّلْمَة والنُّعاس، حتَّى عاد الصوت ينتزعه من الاستسلام، وينتشله من غفوته، ثمَّ يصيح باسمه. يرفعه الصوت، فيحرِّك رأسه، ويسمع هَسِيْسَاً حادّاً في أُذُنه. كانت السماء زرقاء، تتخلَّلها غيومٌ نادرةٌ، وبعيدةٌ، تسافر فُرادَى فُرادَى فوق عَيْنَيْه تماماً. لمَحَ من أيَّامٍ الغيمةَ التي مرَّت سريعاً بينهم. كانوا خمسة جنودٍ، وهو الوحيد بينهم العارف بأحوال الغيوم وتحوُّلاتها، كيف تُخادِع وتحنو، وكيف يمكن أنْ ترطِّب أنفاسه! لقد كانت مَلعَبه فوق سطح بيته، ورفيقته في الدروب الجبليَّة الوعرة. تبدو الغيوم اليوم مختلفةً، بعيدةً وقريبةً في الآن ذاته! ومنذ أيَّام، كانت تُغطِّيه كمُلَاءَةٍ، ثمَّ ترطِّب جفنَيْه، فيمدُّ أصابعه، ويمسكها، ثمَّ يستطيع أن يتخيَّل كيف تتطاول أصابعه، وتنمو معها مثل براعم تتفتَّح وتتحوَّل إلى أغصانٍ، تغطِّي قمَّة الجبل، فيطيب له أن يمدَّ رأسه بينها، ويتلوَّى في بياضها كَمَنْ يستحمُّ بماءٍ! يَفرُك وجهه بها، كما كان يفعل بكُرات الثلج، يَقبِض عليها، وتتخلَّل أصابعه الفراغَ! فيبتسم في أعماقه، ويرى بياض ابتسامته في داخله، يترك نفسه، يدوخ معها رَغْم تنبيهات رفاقه الجنود، ساخراً منهم في أعماقه، فهو الخبير بأحوالها، وحَدْسُهُ أنَّها لن تَخذُله. يقف أمامهم بينما تغطِّيهم النُّدَف البيضاء الكثيفة، يلوك فراغاً ما في فمِه وهو على ثقةٍ أنَّ طراوةً ناعمةً ستدخل حلقه، وتجعله ينام بهدوءٍ، كما فعل في ليالي البرد في عِرْزَالِهِ، وفوق سطح البيت، لكنَّه الآن ليس فوق سطح البيت، وليس في عِرْزَالِهِ، بل على قمَّة الجبل الغريب الذي بدا له كرأسٍ أقرعَ، كان أجردَ في قمَّته العالية، إلَّا من تلك الشجرة العملاقة والسواتر الرمليَّة.

الغيوم هنا، لا تشبه غيوم وسُحُبَ قريته التي عاشت بينهم، وأَلِفَها، كانت غيوم قريته تسبح من أسفل الوادي، وتَعرُج، ويلمحها كنهرٍ أبيضَ كثيفٍ، تغطّي العالَم مِن حوله قبل أن تلفَّه، وتمنع عنه الرؤية. كان أهل القرية يعيشون مع الضباب والغيوم، واعتادوا التلاشي بينها، وكان لعليٍّ نهرُ غيومِه! ونهر الغيوم ذاك وحده يتحوَّل إلى ذيلٍ طويلٍ، يهتزُّ ويتحرَّك أمام ناظرَيْه، يشبه ذيل ثعالب الغابة، كان يقف في عِرْزَالِهِ يراقبه حتَّى يختفي، ويرى الوادي، وقِمَم الجبال المجاورة كيف تبدو نظيفةً ولامعةً حال انقشاع ذيل البياض ذاك، فيقفز فرحاً، ويعرف أنَّ الذيل سيلتفُّ ويصعد إلى قمَّته، حيث ينتظره وهو يتدثَّر بلِحَاف أُمِّه. ثمَّ كانت تلك العوالم الخاصَّة به، والتي لا يقدر أحدٌ على اكتشافها في داخله؛ عالمَه الوحيد الذي لا يطاله أحدٌ؛ كان مثلاً يستطيع أن يقف فوق غصن شجرةٍ ساعاتٍ، طاوياً رِجْلَهُ كمالك الحزين، ينظر إلى تلك العَظَمَة جاحظاً بعَيْنَيْه، ومردِّداً بصوتٍ عالٍ: " يَا وَيليييي، يَا وَيْلَاه ... يَا وَيْلَاااااه"، في تلك اللحظة، عندما تكون السماء رماديَّةً قاتمةً، وفجأةً وسط دُكْنَةِ الرماد، تظهر أعمدةٌ نورانيَّةٌ، تَربِط الأرض بالسماء، حبالٌ من الضوء ضخمة! كان يحني رأسه، ليرى الغيوم الرماديَّة التي تتابع السير، فيُبحِرَ معها ومع أعمدة النور تلك، وبينما تنقشع السُّحُب الرماديَّة، وتُفسح مكاناً للضوء المنفلت، يرى مهرجاناً من الألوان المتداخلة؛ أبيض ... رمادي ... أزرق ... أسود ... أصفر ... ألوانٌ تتماوج وتتعانق، وتتشاكل في حركةٍ دائمةٍ، فيظنُّ أنَّ هذه هي الجنَّة! الألوان تستحوذ عليه! ثمَّ كانت تلك التشكيلات التي تصنعها الغيوم على هيئة كائناتٍ حَيَّةٍ غريبة، كأن يلمح وجه امرأة، لها جسد شجرة، وتنتهي أغصانها بأقدامٍ صغيرة، شجرة لها أرجل بقرة، ويدان من مئات الفراشات، أو رأس طير، يعلوه قَرْنَا تَيْس، وله جناحان من أغصان، وقَدَمان بشريَّتان ... وتشكيلات الغيوم بروعتها تلك كانت تتبدَّد

أمام عَيْنَيْه، وتتحوَّل إلى نِثَارٍ من نُدَفٍ ناعمةٍ وصغيرةٍ، فيظلُّ واقفاً يراقبها حتَّى تختفي، ويشعر أنَّ في داخله حفرةً عميقةً بلا قرارٍ، لا يعرف إن كانت حفرةً من الفرح، أو الخوف، أو الدهشة ... أم ماذا؟ فينزل عن أغصان الشجرة، يمشي مترنِّحاً وممتلئاً بالضياء! كان يبدو وكأنَّه قطعةٌ من تلك الغيوم، وما يتبدَّد، كان شيئاً ما في رأسه. كان لا يعرف أنَّها العَتَمَة! وقد عرف من تلك الأوقات أنَّ كلَّ ما حوله سوف يتلاشى، كتلك الغيوم العملاقة، وهو نفسه كان يشعر بذلك التلاشي، وكان يسمِّي ذلك في نفسه: عملُ الغيوم في أنْ تجعلَه يشبهها!

الغيوم اليوم تبتعد، ولن تُنقذَه؛ أكملتْ طريقها، واختفتْ، وتركتْهُ وحيداً، وتمنَّى لو أنَّ إحداها تمرُّ عليه؛ يبدو هذا حُلْماً صيفيَّاً الآن!

يمنعه قرص الشمس من فتح جفنَيْه، وعندما يستطيع بعد جهدٍ أن يفتح عَيْنَيْه، يباغته الضياء، ويصير للصمت صوت الهَسِيْس، فيرفع رأسه، ويُبعِد نظره عن السماء إلى جهة الشجرة، يسمع اسمه يتردَّد ويَكسر الهَسِيْس! يرتفع بنصف جِذْعه، ويمدُّ رأسه نافضاً عنه الأوراق والغبار والطين، ثمَّ يعود الصوت ببُحَّته الأولى، صوت أُمِّه! فكَّر أنَّه نسيَ اسمها، وتذكَّر أنَّه كان يناديها به! يدير رأسه بثِقَلٍ، علَّه يجدها في مكانٍ ما، ويَعُضُّ لسانه، ليتحقَّق من إحساسه، فيدركه الألم، ويشعر بطَعْمٍ مالحٍ في فمه.

يا عليّ!

عاد الصوت واضحاً صافياً هذه المرَّة، وتذكَّرها هناك تمشي مع بضع نسوةٍ، عيناه معلَّقتان بها، يراقب سقوطها وتعثُّرها، وكيف كانت تنهض تساعدها الجارات وهنَّ يُوَلْوِلْنَ متلحِّفاتٍ بالسواد وراء حشد الرجال.

كانوا في رتلٍ طويلٍ، يمشون بتُؤْدَةٍ وثِقَةٍ في دروب القرية، يتقدَّم الرجال حاملين النعش، تبدو الصورة واضحةً له، كان يجرُّ جسد أُمِّه النحيل المُتهالك تاركاً موكب الرجال المتقدِّم، كانت هذه الجنازة الثانية لهم، لقد مرَّ شهرٌ على جنازة زوج أُخته، وهو لا يذكرها تماماً، وذلك اليوم الذي يذكره ويراه واضحاً ليس حُلْماً، إنَّها جنازة أخيه! نعم، هذه جنازة أخيه، وهو لا يزال على قيد الحياة، والضياء الذي يصدمه عندما يفتح عَيْنَيْه ما هو إلَّا حقيقةٌ. لا يزال في الأرض، ولم يُمُتْ بعد! لا يزال يعيش ويرى تلك الصور. اجتمع أهل القرية أمام المَقْبَرَة الجديدة؛ كانت البلاد حينها تخترع أشكالاً غريبةً للمقابر، مقابرُ مُعلَنةٌ وأخرى مَخفيَّة. مقابرُ صغيرةٌ، تُدفَن فيها أعضاءٌ بشريَّةٌ مُقطَّعةٌ، وأخرى عملاقةٌ، تتَّسع لمئات الأشخاص في حفرةٍ واحدةٍ. في قريتهم عثروا على مَقْبَرَة حجريَّةٍ، تعود لآلافٍ من سنين مضت. قبل عشرات السنوات، كانوا يدفنون موتاهم جانب بيوتهم، ولكلِّ بيتٍ قبوره، كانوا يعيشون مع موتاهم في المساحات الصغيرة التي يسمح بها انحدار الجبل، وفي منحدر الجبل المخيف ذاك قيل إنَّه توجد مَقْبَرَةٌ لثلاثةٍ من الثوَّار الذين قاتلوا الفرنسيِّيْن، وفي الجهة المقابلة لبيتهم، حيث ظهر منذ ثلاثين سنةً قصرٌ ضخْمٌ ذو سورٍ عالٍ، كانت هناك مَقْبَرَةٌ مختلفةٌ، صنع منها صاحبها ضريحاً، ودفن فيه أباه، ثمَّ أعلن رجاله أنَّ هذا هو مَقَام القرية الجديد. كان أهل القرية يتهامسون سرَّاً كيف أنَّ صاحب القصر، الضابط الكبير في الجيش، (أبو الزين) ذاك قد صنع مَقَاماً جديداً! وهذه قصَّةٌ أخرى لم تكن مهمَّةً، لأنَّهم نادراً ما كانوا يتبرَّكون به، قصَّةٌ لم تكن تعنيه وهو يُدرك اسمه، ويرى صورة أُمِّه والجنازة، وهو لا يعرف عن صاحب القصر سوى أنَّه كان يريد أن يصنع من أبيه وَلِيَّاً من أولياء الله، ويرى ضحكاتِ بعض أهل القرية وهم يردِّدون ساخرين هذه الحكاية، وآخرون يردِّدون الأحاديث والحكايات عن أفعاله الصالحة ودُنُوِّهِ من

منزلة الأولياء. ما يعرفه عليٌّ، أنَّ أخاه قد ذهب إلى (أبو الزين) في دمشق، وهو مَنْ ساعده على التطوُّع في الجيش، وهو نفسه الضابط الكبير الذي لم يكن يَملُك شبراً في القرية، وتحوَّل إلى مالكٍ لمعظم أراضيها، وهذا ليس مهمَّاً لعليٍّ أيضاً، ولم يكن مهمَّاً لصاحب القصر، فالأرض الحجريَّة لم تكن تعني الكثير له، هو الذي ترك قريته منذ نصف قرنٍ، واستقرَّ في دمشقَ، ثمَّ عاد قبل عدَّة سنواتٍ حاملاً لقب الحَرَس القديم، وتمَّ الاستغناء عن خدماته مع ظهور الحَرَس الجديد، والكثيرون من أهل القرية يعرفون أنَّ أمر الحَرَس القديم يخصُّ الرئيس الأب، ولا يعني البتَّة الرئيس الابن! وهذا الضابط الذي قيل إنَّه كان ساخطاً على الطريقة التي تمَّ طرده بها من خدماته المخابراتيَّة، لم يكن معهم في الجنازة، أرسل ابنه (الزين) الذي رآه عليٌّ للمرَّة الأولى، وهو ما أصابه بالرَّهْبَة، يستطيع تذكُّره في هذه اللحظة، ويرى أباه ينظر إلى (الزين) هذا بـ (ال التعريف)، هكذا كان يجب أن يناديَهُ الآخرون، (الزين). أُمُّه في الخلف مع النسوة، يسترق النظر إليها، وهو يمشي ويمشي، ولا ينتهي الطريق إلى مَقْبَرَة الشهداء، المَقْبَرَة الجديدة الخاصَّة بالجنود الذين قُتلوا في الحرب، فقد امتلأت مَقْبَرَة القرية الأصليَّة بأجساد شبابهم وأولادهم، ولم يعد هناك من شبر أرضٍ واحدٍ فيها! وهو أمرٌ لم يكن يميِّزهم من باقي القرى في تلك الجبال والسهول قرب البحر، فقد تكرَّر الأمر ذاته. في كلِّ قريةٍ بدأت تظهر المقابر، وكانت تسمَّى بالاسم نفسه، "مَقْبَرَة الشهداء"! وهم كانوا في ذلك اليوم الشتويِّ الماطر يتَّجهون إلى مَقْبَرَة الشهداء صاعدين الطريق الشَّماليَّ المنتهي بفسحةٍ ترابيَّةٍ صغيرةٍ مواجهةٍ للقرية المقابلة، وقد اختاروا هذه الفسحة من أرض أحد المزارعين، والذي كان ابنه قد تحوَّل إلى موظَّفٍ كبيرٍ في الدولة، ليس هو فقط، بل أولاده أيضاً، ولم يكونوا يظهرون إلَّا بسيَّاراتهم الفارهة ذات الزجاج الأسود. الموظَّف يسمِّيه أهل القرية بالمسؤول الأمنيِّ، وكان قد

هجرها، ثمَّ عاد إليها عجوزاً في أثناء الحرب، وقد تبرَّع بقطعة الأرض التي ستقوم عليها مَقْبَرَة الشهداء، وانضمَّ هو وأولاده إلى الميليشيات التي تتكاثر في الجبال والسهول بطريقةٍ غير مفهومةٍ! وهو لم يكن معهم في الجنازة، لا هو، ولا أولاده، كانوا مشغولين بإقامة الحواجز بين القرى، وتوقيف السيَّارات، واعتقال البشر ... وأشياء كثيرة، لا يعلم بها إلَّا الله، على حَدِّ قول جارهم!

خرجت القرية بأسرها وراء النعش، قَدِموا بموكب عُرسٍ، تناوبت الزغاريد التي تُطلقها النساء، والرصاص الذي يطلقه الرجال، وجاء الضابط المسؤول عن أخيه، يلقي كلمة شهيد الوطن كما سمَّاه، ولم يُسمَح لهم برؤيته؛ يقولون إنَّ الجثث المشوَّهة والمقطَّعة لا يُسمَح للأهالي برؤيتها، وتبقى داخل تابوتٍ خشبيٍّ، يملؤونَه بالرمال، وبما تبقَّى من الأشلاء، ثمَّ يأتون بها من المشفى إلى بيت الشهيد وساحة المَقَام. كانوا يعتقدون أنَّ على أرواح موتاهم أن تزور البيت حتَّى تُعاود المجيء إليه، فهي سترافقه في رحلة دفنه، ولكنَّهم يومها ومع تابوت أخيه ذهبوا مباشرةً إلى المَقْبَرَة، وقد ردَّد أهالي القرية أنَّ جسد أخيه كان عبارةً عن بقايا ممزَّقةٍ، لذلك أمر الضابط المسؤول بالذهاب مباشرةً إلى الدفن.

الأُمُّ تتهالك، ثمَّ تقوم، وتنظر إلى التابوت المحمول على أكتاف شباب القرية، ثمَّ تطلب برجاءٍ يائسٍ أن تُلقيَ نظرةً أخيرةً على ابنها، وتودِّعه، لكنَّ الرجال كانوا يستغفرون الله، ويهزُّون رؤوسهم، ولا يَلقَون لها بالاً، أمَّا النساء، فيُربِّتْنَ على كتفَيْها، ويُزَغْرِدْنَ، ويُوَلْوِلْنَ. أُخته الأرملة التي مشت على الطريق نفسه قبل شهرٍ، والتي لم تبلغ الخامسة والعشرين أمسكت صورة أخيها بيدٍ، وطفلها بيدٍ أخرى ماشيةً بثباتٍ وقوَّةٍ، إلى جانبها الأُخت

الصغرى. كانوا في تلك العائلة قد اجتمعوا بين الناس وراء نعش الأخ الأكبر، وكانوا ضائعين عن بعضهم، يلتفتون خائفين، وعليٌّ مثلهم، نسِيَ لوَهْلَةٍ وهو يراقب تابوت أخيه، نسِيَ تماماً كلَّ ما يحيط به. نسِيَ وجه أخيه والعيون الباكيات من حوله. تذكَّر أنَّ أحد رجال (الزين) صرخ بامرأةٍ عندما وَلولَتْ، وأمرها أن تُزغرد، لأنَّ الجنازة عرسٌ للوطن، ولمحَ وجه المرأة وهي تنظر إليه بخوفٍ، وتعيد تشكيلَ قسماتِ وجهها، وتمسح دموعها، وتزغرد بطواعية بلا توقُّفٍ، وكانت أُمُّه قد أطلقت صرختها تلك: "ويْن رِحْتْ وتْرَكِتْنِي، واااغالي".

تذكَّر أنَّه مشى وراء نعشه، وأمسك شيخ القرية بيده، وشدَّ عليها، ثمَّ دخلوا المَقْبَرَة، ورأى الحفرة هناك، هذا ليس حُلْماً، إذن! الشكل نفسه وطبقات التراب وألوان الديدان الزهريَّة نفسها. وكانوا يُنزلون التابوت؛ تحيطهم أشجار الدُّلْب والسَّنْدِيَان، وتُسوِّر المَقْبَرَة الجدران الحجريَّة المرصوفة بعنايةٍ، ويرى مِنْ حوله الحفر الكثيرة التي امتلأت بها القرية. عندما دفنوا زوج أُخته لم تكن الأرض محفورةً على هذا الشكل، لكنَّه رأى الحفرة، وعرف أنَّه ليس الميت من جديدٍ، ثمَّ ظهرت من بين الرجال امرأةٌ بشَعْرٍ أحمرَ، وتذكَّر أنَّه يعرفها، ولم يكن قادراً على تذكُّر أكثرَ من ذلك، وجهها لا يزال مُبهَماً، لكنَّ شَعْرها الأحمر المنكوش وثوبها الطويل يعنيان له شيئاً، كانت تحاول الاندساس قرب (الزين) الذي لم يحلم عليٌّ بأن يراه أو يتحدَّث إليه يوماً، وها هو يجده أمامه مع رجالٍ، حملوا بنادقهم وهم ليسوا جنوداً، وأطلقوا الرصاص بغزارةٍ باتِّجاه السماء عندما وصلوا المَقْبَرَة، وحينها ارتجف عليٌّ. كان ذلك قبل سنةٍ، ربَّما، لم يعدْ يذكرُ! يعرف أنَّهما عادا من العمل في السهول هو وأبوه، ووجدا البيت يَضِجُّ بالبكاء، وعرفا أنَّ أخاه لم يعد موجوداً، وأنَّ أشياءَ أخرى سوف تصدع رأسه، حيث تحوَّل

بيتهم المكوَّن من غرفتَيْن إلى مضافةٍ للجيران الذين توافدوا من كلِّ مكانٍ؛ أتوا بالطعام والشراب وهم يُوَلْوِلُون، ويَنُوحُون، ويحكي كلٌّ منهم قصَّة ابنٍ فقَدَهُ، وكانت أُمُّه تنظر مِن حولها بذهولٍ، وفي أثناء الدفن، بقيت عيناه مصوَّبتَيْن نحوها، كانت تحاول التقدُّم بين الرجال، لتصل التابوت، ولا تستطيع، وعندما ظهرت المرأة ذات الشَّعْر الأحمر، أمسكها أحد رجال (الزين)، وأخرجها من بين مجموعة الرجال الذين اصطفُّوا حول القبر، وكان أبوه يمسِّد التابوت الملفوف بعَلَم البلاد، عَلَمٍ لامعٍ جميل، وعلى حوافِّه المطرَّزة بخيطانٍ ذهبيَّةٍ، تروح أصابع أبيه وتجيء، بينما أُمُّه تحاول التقدُّم وشقَّ طريقها، وتقول لها امرأةٌ: "ابكي، يا نهلة، ابكي!" إذنْ، اسم أُمِّه نهلة، ها هو يتذكَّر، ولا تبكي نهلة التي تذكَّر اسمها وهو ملقىً تحت شمس الظهيرة، ثمَّ سقطت المرأة ذات الشَّعْر الأحمر، والتفتَ إليها، وعرفَ مَنْ هي!

الآن، وهو ممدَّدٌ مقابل الشجرة أدرك أنَّها "الحْمَيْرُوْنَة"، وانتفض جسده بين الأوراق، وسمع خشخشةً، ورأى الصورة كاملةً للحفرة التي دلَّتْهُ أنَّه ليس الميت، وأنَّ "الحْمَيْرُوْنَة" عندما تقدَّمت إلى القبر كانت تحاول أن تلمس التابوت، كما أقسمَت أن تفعل أمام أهل القرية في وداع شبابها نحو التراب، وكانوا في كلِّ مرَّة يجرُّونها جَرَّاً من المَقْبَرَة وهم يلعنونها ويَشتُمُونها، ويُخبرونها ألَّا تتقدَّم من الرجال وهم يَدفِنُون موتاهم الرجال: "هيكْ لكانْ! آافينا نْقرِّبْ مِنْ الرِّجِيل وهِنِّي مَيِقْبْرُوا الرِّجِيلْ ... آهاااا ....".

تردِّدُ جملتها، وتبصُق! وهذا لم يكن مهمَّاً بالنسبة "للحِمَيْرُوْنَة"، لأنَّها التفَّتْ حول الجمع بعد أن طردوها، وانسلَّت بينهم، وأمسكت بثوب الأُمِّ،

وجرَّتْها وراءها، وتخلَّصت من أذرع النساء من حولها، وكانت صفوف الرجال متينةً، يتراصُّون مع بعضهم، ويستمعون للشيخ وهو يقرأ الفاتحة على روح أخيه، ابن قريتهم الذي لم يعرفوه كثيراً، عرفه البعض وهو يعمل أجيراً في أراضيهم، قبل أن يتطوَّع في الجيش، لكنَّ واجب الخروج في جنازته في هذا الطقس الماطر والبارد، كان أمراً حَتْمِيَّاً، فهم في مصيبةٍ واحدةٍ، وعاجلاً أم آجلاً سيَفقِدُون أبناءهم، وقد تذكَّر بعضهم أنَّ الشهيد وعائلته، كانوا من البشر اللامَرئيِّيْن بالنسبة إليهم، كانوا أُجراءَ، ولولا حصص اللحم التي يوزِّعونها في أعيادهم الدِّيْنيَّة على عائلات القرية الفقيرة، لَمَا فكَّروا يوماً حتَّى بالوقوف لإلقاء التحيَّة عليهم، كانوا في المَقْبَرَة ينتظرون إنهاء واجباتهم والعودة للتفكير بإطعام مَنْ تبقَّى من أبنائهم، ولم يكن الوقت يسمح لهم باحتمال الإنصات لعجوزٍ خَرِفَةٍ، يسمُّونها "الحْمَيْرْوْنَة"، وعندما صرخ أحدهم، بأنَّ الشهيد مات فداءً للرئيس، ورفع صورة رئيسهم، صرخ آخرُ؛ بأنَّه مات فداءً للوطن، وقال الشيخ: "الحمدُ لله على كلِّ شيءٍ، في حضرةِ الموتِ، مَا فِي دَاعِي لَكِلْ هَادْ، يا شَبَابْ ... الله يِرْحَمُو"، وكان إلى جانبه الشيخ الجديد الذي كان واحداً من رجال (الزين)، ولم يكونوا يُولُونه احترام شيخهم الأساسيِّ، لكنَّهم يخشونه، لذلك وما إن نطق شيخهم بعبارته تلك حتَّى تقدَّم شيخ (الزين) الجديد، وصرخ: كلُّنا فداء الرئيس والوطن، ثمَّ اقترب رجلٌ مسلَّحٌ من الشيخ، وهمس بأُذُنه شيئاً، فاصفرَّ وجهه، وأُطلق الرصاص، وتعالت بنادق الكلاشينكوف في السماء، وارتجف الأهالي، وزغردت النساء، وبدا أنَّ الجمع البشريَّ يتمايل بحركةٍ متماوجةٍ مع أصوات الرصاص، وصاحت النساء بأسماء أولادهنَّ الشهداء وهنَّ يطلبنَ من الأخ الشهيد إيصال سلامِهِنَّ وحُبِّهِنَّ إلى أولادهنَّ في العالَم الآخر، وصارت الأسماء تتردَّد هنا وهناك، وتطير مع آهاتهم، ومع كلِّ اسمٍ تعاود أصوات الرصاص، وفي أثناء ذلك

الانشغال، تسلَّلت الأُمُّ والحْمَيْرُوْنَة بين أقدام الرجال، وفجأةً كانت الأُمُّ أمام التابوت، بينما يشخص الرجال بأنظارهم إلى السماء وهي تستقبل الرصاص المتناثر، وأصوات صياح شبابٍ يَهدِجُون: "زِفُّوا الشَّهِيْد ... اليُومْ عِرْس الشَّهِيْد، زِفُّوه ... زِفُّوه"، وزغردت النساء، وصرخ رجلٌ بأنَّه آن الأوان كي يُودِعُوا الأرضَ أمانتَها، لكنَّ نهلة كانت قد وصلت التابوت، وصرخت: "بَدِّي شُوفْ اِبْنِي، بَدِّي شِمْ رِيْحْتُو!" ودُهش الجمع، فقد كانت نهلة تنام فوق التابوت، وتَحضُنه، وتُمسك به بقوَّةٍ، كان المطر قد توقَّف، وتسمَّر جسد الأُمِّ فوق التابوت. لم تكن قوَّةٌ ما بقادرةٍ على زحزحتها، وانزلق عَلَمُ البلاد في الحفرة، والتصقت بالخشب وهي تحاول فتح التابوت، وهُرع الرجال لنزعها من ذلك الالتحام، فتملَّصت منهم، ثمَّ رأى عليٌّ نهلة، وكان ينظر إليها، ولا يساعد أباه والرجال بانتشالها. كان ذلك هو المشهد؟ نعم، هي جنازة أخيه بالتأكيد، يذكر أنَّ نهلة تهاوت مع التابوت في الحفرة، وقد كان هذا عاراً عليها، ومُخالِفاً للتقاليد التي تمنع النساء من التقدُّم إلى حفرة القبر جانب الرجال، سقطت أوَّلاً ثمَّ سقط فوقها التابوت، وكان مُسمَّراً، ولم تستطع فتحه، وحلَّ الصمت لثانيةٍ، فقد بدا أنَّ نهلة دفنت نفسها! ولم يُسمَع لها صوتٌ ولا حَشْرَجَةٌ ولا أنينٌ. كانت تسمع ضجيجاً ولَغَطاً، وتشعر بأنَّ عظامها تتفتَّت تحت ثِقَل التابوت، وتفتح عَيْنَيْها، ترى أيادي الرجال الممتدَّة، لتُخرِج التابوت ثانيةً من حفرته. يراقبها عليٌّ جاحظ العينَيْن، ولا يتقدَّم للمساعدة! كان يقف مدهوشاً يراقب الرجال وهم يحاولون انتشال أُمِّه من الحفرة، كانت نجحت، أخيراً، في وداع ابنها، رَغْم أنَّها لم تشمّ سوى رائحة التراب، وسمعت لعنات الرجال الذين فكَّروا بامرأةٍ لا تحترم قواعد دِيْنهم وحُرْمة الموت. "الحْمَيْرُوْنَة" سبَّتْهم ولعنتْهم، وقالت لهم بأنَّهم أوباشٌ، وأنَّ عليهم أن يتركوا المرأة المسكينة تُودِّع ابنها، وعندما قال لها (الزين) بأن تخرس وتنقلع من المَقْبَرَة، أجابتْه بصوتٍ

قويٍّ: "انقلِعْ، يا وجهْ النحسْ!" ثمَّ بصقت في وجهه، فنهرها أحد رجاله، وأبعدها بطرف سلاحه، ولم تكن لتحتمل أكثر من ذلك، فقد سقطت إلى جانب الحفرة وهي ترى أصابع نهلة تلتفُّ حول التابوت كمسامير.

أمسك عليٌّ بأُمِّه بعد أن رفعها الرجال، وترك الجمع؛ كان يسنُدها أوَّلاً ثمَّ تهاوت بين يَدَيْه، فحملها بذراع واحدةٍ، ولم يلتفت إلى الوراء ويأبه بتعليقات مَنْ حوله، ومشت وراءهما الحْمَيْرُوْنَة بعكَّازتها وهي تُبرطم وتعرُج؛ كان وجه نهلة أصفرَ شاحباً، ملابسها مبتلَّةٌ بالطين، وأطرافها ترتجف، ونسِيَ الرجال والنساء وجودها، وتعاظمت حسراتهم على الشابِّ الذي مات، وحانت التفاتة من إحدى النساء إلى عليٍّ وهو يحمل أُمَّه مبتعداً، فَوَلْوَلَت وهي تصرخ باسمها، والتفت الجمع إلى عليٍّ وأُمِّه اللذَيْن تركا الجنازة، وجلبا السخط على نَفْسَيْهما هذا اليوم، ولم يكونا على قَدْر المصيبة، فصاحوا به ليعود، ثمَّ توقَّف عليٌّ وهو يحمل أُمَّه بذراع واحدةٍ، وصرخ بهم لاعناً آباءهم وأُمَّهاتهم. كان حينها قادراً أن يَلمِسَ، ولأوَّل مرَّة في حياته، خَدَّي أُمِّه المُشَقَّقَيْن بفعل البرد أو الشمس، لا يدري بدقَّةٍ، كان يعرف، فقط، أنَّ ذلك المَلمَس الخشِن للجِلْد الأحمر المتشقِّق، ونَثْرَاته الميتة والمعلَّقة بخَدَّي أُمِّه كأشواكٍ ناتئةٍ، قد جعلتْهُ، أخيراً، يسمع صوت طَقْطَقَةَ حَنْجَرَتِهِ، وهو يُحدِّق بعينَيْن جافَّتَيْن إلى السماء.مكتبة

مكتبة telegram @t_pdf

خلف الشجرة وتحت أشعَّة الشمس الحارقة، رأى شخصاً ما على الجهة الأخرى ... كائناً حَيَّاً، خيالاً شكَّلتْهُ ربَّما قسوة الصمت، أو عدوَّاً رمَتْهُ القذيفة، كما رمَتْه ورفاقه.

صدأٌ؟ أهو طَعْم الخوف؟ خوفٌ بطَعْم الصدأ الذي خبِرَه مؤخَّراً، طَعْم الصدأ ليس إلَّا رائحة الانفجارات، وها هو يبتلعه بسهولةٍ. يدقُّ قلبه بعنفٍ، يرفع رأسه مراقِباً الرأس المُواجِه، يفعل الرأس الآخر مثله، يَغِبُّ نَفَسَاً عميقاً، ويُغمِض عَيْنَيْه.

وسط السماء، تخيَّل صورته والآخر؛ رجلان نَفَضَا عن نَفْسَيْهما الأغصان اليابسة وأوراق الشجر والطين والتراب، ورفعا رأسَيْهما يراقبان بعضهما، ومن بعيدٍ، يبدو أفق البحر لانهائياً؛ كان اعتاد على رسم تلك الصور، يُغمِض عَيْنَيْه، ويتخيَّل أنَّه يرى الأشياء من فوق، لقد وُلد في قمَّةٍ عاليةٍ، وكان ينظر إلى الأشياء التي تحته، وعندما صَعِد شجرةَ بيتهم، لم يَعْله شيءٌ سوى السماء، من هناك يتخيَّل أُمَّه كيف تبدو إذا نظر إليها من السماء؛ شجرَتَهُ؛ عِرْزَالَهُ؛ دروبَ القرية؛ الحْمَيْرُوْنَة، وخطوطَ الجبال عندما تتلاقى في وديانها. هو الآن قادرٌ على تخيُّل المشهد، كائنٌ حَيٌّ يتحرَّك، يراقبه ويقلِّد حركاته، يبدو طبق الأصل عنه! لا طيور في السماء! غريبٌ أن تختفيَ الطيور في يومٍ صيفيٍّ مشمسٍ، أمَّا الجبال التي مرَّت عليها من آلاف السنين حروبٌ ودماءٌ كثيرةٌ، فقد استرخت حتَّى أوَّل البحر هادئةً ومتيقِّنةً أنَّ الأمر لا يعدو كونَه مجرَّد حدثٍ عابرٍ، ولن تُخيفها القذيفة

التي سقطت عن طريق الخطأ، عندما ألقت إحدى الطائرات بحمولتها فوق الدوريَّة المرابطة في القمَّة.

لا يفهم عليٌّ لمَ ألقتِ الطائرة تلك القذيفة؟! كيف يُلقون عليهم قذيفةً وهم يَحمونَهم؟! كيف يتشكَّل الخطأ؟! لا يستطيع التحرُّك، كلُّ ما حوله مُبهَمٌ ومُشوَّشٌ، إذ فكَّر ولثانيةٍ، أنَّه جريحٌ، ولا يستطيع رؤية مكان جُرحه، وأنَّه وحده، وأنَّ الجنود الآخرين ماتوا حرقاً، أو أيَّاً كانت طريقة موتهم، فهو لا يرى واحداً منهم، حتَّى إنَّه لا يسمع أنيناً!

هو وحدَه إذن! وهذه الشجرة التي يحفظها عن ظَهْر قلبٍ، كما يحفظ تضاريس أشجار قريته، بدَتْ له توأم شجرته في القرية، شعَّ نورٌ في قلبه، وعَدَّ أنَّ هذا طالعٌ حسنٌ! سوف تحميه الشجرة، هو يعرف ذلك، لقد حمَت المَقَامَات، وحمَت كلَّ مَنْ لجأ إليها.

ما إن استطاع إنهاض جِذْعه، واتَّكأ على مَرْفِق يده اليمنى حتَّى صرخ من الألم، وعاود، فلمَح الرأس المقابل يرتفع ويصرخ، ثمَّ ينزلق مثله، ثمَّ تردَّد صدى الصرخات بين الجبال، وشوَّشتْهُ حركتُه، خُيِّل له أنَّه يلمح ظلَّه، أو يراقب عالَماً شبيهاً موازياً لعالَمه، ربَّما هو وَهْج الشمس، ويتراءى له ذلك، أو ربَّما هو هناك! كانت خيالات الحركة التي كرَّرها تُرى من الجهة الأخرى، ويرى نفسه يُعيد ملاعبته لحركة الآخر، أو لظلِّه، أو لهلوساتِه، أيَّاً يكن! فهو لم يعُد متأكِّداً من شيءٍ سوى أنَّه ينتظر أحداً ما سيأتي لإنقاذه، ربَّما لم يمرّ وقتٌ طويلٌ، والانتظار الذي خُيِّل إليه أنَّه تجاوز قرناً من الزمان، ما هو إلَّا ساعاتٌ قليلةٌ. متى كان وقت القذيفة؟ لا يستطيع التذكُّر! إنَّه يستعيد رأسه شيئاً فشيئاً، شجرته هذه وشجرته تلك! إنَّه

يعرف تلك المرأة أيضاً، صورتها تتَّضح أكثر حتَّى إنَّه يذكر لون عَيْنَيْها الغارقتَيْن في الزمن، لونهما الرماديُّ الأبيض، تبدو كعمياءَ، وليست عمياءَ تماماً، تشيرُ بإصبعها المرتجف، وتقول له: "هُون بالرَّاسْ، أنا بشُوْف بْرَاسِي مُو بِعْيُونِي"، وهي التي قالت له إنَّ شجرة المَقَام هي الصديقة الوحيدة لها، وهي تعتني بابن صديقتها، وكانوا في القرية يصرخون بها أن تكفَّ عن تُرَّهَاتها تلك، لأنَّ الولد لا ينقصه الخَبَل، فتبصق عليهم.

إنَّه يتعرَّف نفسه من جديدٍ! يتذكَّر الحْمَيْرُوْنَة التي حكَت له قصَّة الأشجار. عليه التركيز جيِّداً، لا يَملُك الكثير من الوقت، لزِمه نصف نهارٍ، كي يستفيق ويحرِّك جِذْعه، وليعرف أنَّه حَيٌّ، ومَنْ هو، وما هو اسمه، ويعرف أُمَّه واسمها، ثمَّ يعرف الآن الحْمَيْرُوْنَة، إنَّ عنايةً إلهيَّة تلاحقه، وإلَّا ما خطرت على باله هذه العجوز! المرأة التي كبر بين يَدَيْها، وعلَّمتْهُ لغة الأشجار، كانت تقول إنَّ الأشجار - وعلى عكس ما تقول الأكاذيب - هي مَنْ تحفظ تماسُك الأرض، وتشدُّها إلى نقطةٍ عميقةٍ في مركزها، وكان أهل القرية يسخرون من المرأة التي تجاوزت المئة سنةٍ، وما تزال تُحنِّي شَعْرها بالأحمر الذي تحوَّل مع الوقت وسنةً بعد سنةٍ إلى لونٍ برتقاليٍّ صارخٍ. في الثلاثين سنةٍ الأخيرة، كانت تطلب من إحدى النساء مساعدتها على ذلك، يقع الاختيار بشكلٍ عشوائي، حيث تَطرُق أحد الأبواب، ثمَّ تنادي امرأةً باسمها آمِرَةً إيَّاها أن تخرج، لتُحنِّي شَعْرها. كان الأمر يبدو مضحكاً لأهل القرية؛ بالنسبة إليها كان أمراً حيويَّاً، كانت تكره الشَّعْر الأبيض! ردَّدت هذا أمام عليٍّ، وهي تبصق على الزمان! كانت تعيش أسفل جِذْع الشجرة، وهذا لم يمنعها من العناية بنظافتها وشَعْرها وهندامها ولباسها الغريب؛ رداءٌ طويلٌ، يتوسَّطه زُنَّارٌ مُلوَّنٌ، وعلى رأسها تضع منديلاً مُطرَّزاً، تقول إنَّ عُمُره بعُمُرها، شُغِلَ بِسِنَّارَةٍ رفيعةٍ وخيطان حريرٍ قمحيَّة اللون، تلفُّه

حول وجهها في أيَّام البرد، فلا تبدو سوى عَيْنَيْها، لقد حافظت عليه مثلما حافظت على حياتها، ستروي لعليٍّ أشياءَ كثيرةً، قالت له قبل التحاقه بالجيش بأنَّها تعرف أنَّهم في سنة 2013، وهي وُلدت قبل مئة سنةٍ! وأنَّها ستعيش أطول ممَّا يجب، ولكنْ، إن حصل وماتت، فستكون سعيدةً، لأنَّها عاشت قرناً من الزمان حتَّى يتسنَّى لها إغضاب أكبر عددٍ من الأوباش كما تصفهم، وحين سألت عليَّاً ذات نهارٍ إن كان قد عرف الحبَّ، وكانا جالسَيْن تحت شجرة المَقَام، لم يُجبْ، ولم يحمرّ وجهه، أو يُبدي ردَّة فعلٍ، بقي ينظر إلى الفراغ، وشعر بألمٍ عميقٍ، لم يختبره من قبل، أمَّا الحْمَيْرُوْنَة، فقد صرخت بصوتٍ عالٍ "وْلَكْ عَلِي، اللِّي مَا بْيَعْرِفْ العِشْقْ مَا بْيَعْرِفْ الحَيَاةْ، شُوفْ!"، ثمَّ وقفت مرتجفةً، وتأتأت: "شَايِفْنِي أنا ... إِيْه أنا ... التركي والفرنسي والعربي ... عْرِفِتْهِنْ كِلْهِن ... أنا عْرِفْت العِشْقْ، وقَلْبِي رَحْ يْمُوتْ مِرْتَاحْ ... شَايِفْ هَالجْبَالْ ... كِلْهَا بَعْرِفْهَا وكِلْ جَبَلْ إِلِي فِيْه قِصَّة ... إِيْه ... يَا زَمَنْ"، وحينها وهي لم تُكمِل جملتها بعد، كان رجلٌ يمرُّ بقربهما خارجاً من المَقَام، فَشَتَمَهَا طالباً منها أن تستحي على شَيْبَتِها، ولم تُلقِ له بالاً، وعادت تكرِّر نهاية جملتها بحسرةٍ: "إِيْه، يَا زَمَنْ"! ثمَّ تضحك، وتتابع وهي تشير بيدها إلى أعلى قمَّة الجبل المقابل: "هُناك ... هُناك ... حيثُ لا يُمكِنُ لأمثالِكُم تحمُّلَ قَسوةِ الحياةِ، هُناك عشتُ"، تقولها باللغة الفصحى! ما كان يُفاجِئ عليَّاً أنَّ بيتهم كان على قمَّة الجبل، ولم يعتقد أنَّ هناك قمَّةً أعلى منها. تُعاوِد الضحك، وتفعل ذلك على طريقتها بجَلْجَلَةٍ طويلةٍ لا تنتهي سوى بشهقاتٍ ودموعٍ تنزل على خدَّيْها وهي تقول: "الله يْجِيْرْنَا مِنْ هَالضّحْكْ! شِفْتْ النَّاسْ إِذَا بْتِضْحَك بِتْخَافْ ... لَكْ مِنْخَافْ حتَّى نِضْحَكْ"! ثمَّ تضحك!

عندما وُلِدَ عليٌّ، وبقي يومان لا يبكي رَغْم أنَّ أصوات أنفاسه كانت مسموعةً، ظنَّ الجميع أنَّه سيموت، وكانت الحْمَيْرُوْنَة تعتني بالعائلات أمثال عائلة عليٍّ، وعنايتها تلك لم تكن تعني سوى زيارتها لهم بين وقتٍ وآخر، وعندما سمعت أنَّ نهلة ولدت صبيَّاً ضعيفاً أسرعت تجرُّ خُطاها وعكَّازها، دخلت البيت دون استئذانٍ، وقالت لنهلة المذعورة بأنَّ ابنها سيعيش، ثمَّ صرخت بهم كيف يجتمعون في هذه الغرفة التي ستخنق الوليد: "غِرْفَةْ قَدْ كِسْ العَقِرْبِة، وبَدْكِنْ يَاه يِتْنَفَّسْ"! ثمَّ أمرت نهلة أن تحمله، وتلحق بها إلى المَقَام.

رَغْم أنَّهم وصفوها بالمجنونة، لكنَّ التجربة علَّمتْهم ولأجيالٍ متعاقبةٍ أن يُنصتوا إلى تلك المرأة التي أُوتيَتْ علوماً غريبةً، لا يعرف أَحدٌ من أين حصَّلتْها، كانت تقرأ، ثمَّ توقَّفت عن ذلك منذ عشر سنواتٍ عندما لم تعُد تُبصِر جيِّداً، وكانت تُغنِّي لغةً غريبةً، سمعَهم عليٌّ يقولون عنها سِريانيَّة، وآخرون قالوا إنَّها تعلَّمت التركيَّة، لأنَّها عاشت مع الأتراك بعد أن فُقِدَ أبوها في سَفَرْ بَرْلِكْ، وتعرف الفرنسيَّة، لأنَّها كانت تعمل مُمرِّضةً مع الفرنسيِّيْن، وقد رافقت أحدَ مهندسيهم وهو يقوم بالتخطيط لبناء الجسور، وبقيت مع بعثةٍ منهم، أرسلتْها حكومة الانتداب الفرنسيِّ لبناء مدرسةٍ في إحدى القرى الجبليَّة، وهناك تعلَّمت القراءة والكتابة، حتَّى إنَّ أحدهم قال إنَّها حضرت أحد استقبالات الجنرال غورو. آخرون قالوا إنَّها كانت تجتمع بالشيخ صالح العليّ ورجاله؛ رواياتٌ وأساطيرُ تُروى عنها، ولا أحد يعرف حقيقة أمرها، لقد أتت من الجبال الشَّمَاليَّة البعيدة، هناك عندما كان لواء إسكندرونة ما يزال جزءاً من سورية، وهي نفسها اختلطت عليها الأمور، فلم تعُد تذكر سوى أنَّها وُلِدَت في اليوم الذي اندلعتْ فيه إحدى الحروب الكثيرة التي ينشغل البشر باختراعها، وقد

بقيت قويَّةً حتَّى هذه اللحظة، بفضل ذاكرتها كما تُردِّد، ورواياتها التي ترويها عن نفسها صارت أحداثاً مشكوكاً بها بالنسبة إلى كثيرين. كانوا يرهبونها حقيقةً، فهي والموت صديقان!

حينها، وقبل تسع عشرة سنةً، عندما وُلد عليٌّ كانت ما تزال حاضرةً في يوميَّاتهم، ويُنصتون إليها، لذلك أسرعت نهلة، ومشت وراءها بخُطىً بطيئةٍ، ليس بسبب إعيائها، بل لأنَّ الحْمَيْرُوْنَة كانت قد اكتسبت وعبر امتداد العُمُر عادة العَرَج والانحناء حتَّى ليُخيَّل للناظر إليها أنَّها ستسقط خلال كلِّ خطوةٍ. بقيت الحْمَيْرُوْنَة مع نهلة في المَقَام، تمسحان جسد عليٍّ بالزيت المُبارَك، وأمَرتْها أن تضعه قرب شجرة المَقَام التي تتفرَّع إلى أغصانٍ عدَّةٍ، وهذا التفرُّع كان يشكِّل مربَّعاً كافياً لجلوس أربعةِ أشخاصٍ، وضعتْ عليَّاً في ذلك المربَّع، أشعلتِ البخور فوق أقرب غصنٍ، وبقيتْ قربَه تُتَمْتِم. كانت الشجرة تظلِّل المَقَام مثل المَقَامَات كلِّها الممتدَّة في السهل والجبل على البحر، أشجارٌ عُمُرها مئات السنين، لم تعبث بها يد الإنسان، لأنَّها مقدَّسةً.

تلك الشجرة التي ستتحوَّل إلى ملجأٍ لأرامل القرية بعد سنواتٍ، وستكون مجاورةً لحارةٍ سُمِّيت بحارة الأرامل في أثناء الحرب، تلك الشجرة كانت المكان الأوَّل الذي صرخ فيه عليٌّ صرخته الأولى، وتجمَّع مِنْ حوله أبوه وأُمُّه وأخوته، يُتمتِمون، ويدعون الله لإنقاذه. في الليل جاء طبيب القرية، وأخبرهم أنَّ الوليد بصحَّةٍ جيِّدةٍ، وأنَّ عليهم أن يعودوا إلى البيت.

في السنوات اللاحقة، سيُردِّد أهل القرية أمام الولد عليٍّ، أنَّ الحْمَيْرُوْنَة أنقذتْهُ، وأخبرتْهم أنَّه ابن الشجرة، وأنَّ حياةً جديدةً كُتِبَت له، أمَّا

الحْمَيْرُوْنَة وبعد أن كبر عليٌّ، وصار يذهب إلى مدرسة القرية، فقد رَجَتْهُ ألَّا يلتفت لكلام الأغبياء هؤلاء، وقالت إنَّها فعلت حينها ما فعلتْهُ حتَّى تُخرِجَهُ من ذلك الجُحْر الضيِّق المُسمَّى بيتاً. ولكن هذا لا يعني أنَّه ليس ابن الشجرة! ومع كلِّ سنةٍ، ستقصُّ عليه حكاياتٍ من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ. كانت تزورهم في الصباح، وتخرج عصراً، وعندما تتأفَّف نهلة منها، تقول: "شُو نْسِيْتِي إنُّو إلِي حِصَّة فِيْه مِتْلِكْ"! فتصمت نهلة، وتسمح لها بالبقاء. في عُمُر الرابعة، صارت تصحبه معها إلى المَقَام، أمَّا عليٌّ - وعدا عن سطح بيتهم المعلَّق على حافَّة جبل وعِرْزَالِهِ - فستكون حافَّة أغصان الشجر ملاذاً له، وسوف يتعلَّم الطيران بين أغصانها حتَّى إنَّه كان يستطيع الانتقال بين الأشجار بوثباتٍ خفيفةٍ، وكانوا يرونه يطير بين أشجار الغابة متنقِّلاً ببراعةٍ بين حوافِّ أغصانها، ثمَّ سيكتفي بالعيش بين شجرة المَقَام وشجرة عِرْزَالِهِ، وسيطير بين أغصانهما، وسيكتشف مَنْ حوله أنَّه نادراً ما يتكلَّم، وأنَّه يستطيع أن يتحدَّث مع الطيور، وسيُلقِّبه صبيان القرية بـ (شُحْرُور الحْمَيْرُوْنَة).

كانت القرية تقوم على مساحةٍ صغيرة؛ بيوتها بين مدرَّجات الجبل، ووسطها كانت هناك مجموعةٌ صغيرةٌ وفقيرةٌ من البيوت، تتفقَّدها الحْمَيْرُوْنَة غالباً، وتمرُّ عليهم واحداً واحداً، ولكنَّها لم تأكل سوى في ساحة المَقَام، هذه قاعدةٌ يعرفها الجميع، فقد كانت هناك وجبةٌ تنتظرها من قِبَل الأهالي. لاحقاً وفي الحرب في أثناء غرقهم في شجونهم وفجائعهم وجوعهم، كانوا ينسونها لبعض الوقت، ثمَّ يُعاوِدُون التذكُّر! وكان من حُسن حظِّها أنَّ الأهالي يتوجَّهون إلى المَقَام، لتقديم الذبائح التي ستحمي أولادهم على جبهات القتال، حيث كانت للحِمَيْرُوْنَة أولويَّةُ نِعَم المَقَام تلك، وهي لا تنفكُّ تُسمِّي نفسها بحارسة المَقَام، ولم يُزعج الرجالَ كلامُ

امرأةٍ مثلها، فقد كانت لهشاشتها وهَذَرها لا ينظرون إليها سوى ككلبٍ بحاجةٍ إلى طعامٍ، وهو السبب الوحيد الذي جعلهم يتحمَّلون ما تقوله لهم، ولكنَّهم كانوا يطردونها في أثناء اجتماعاتهم الدِّيْنيَّة، ولا يسمحون لها بالاقتراب من المَقَام، ثمَّ اعتاد شيخ القرية الجديد في السنوات الأخيرة أن يلعنها وينهرها، دون أن يجرؤ أحدٌ على منعه، وقد حذا كثيرون حذوَه.

لم يعرف أحدٌ اسم الحْمَيْرُوْنَة الحقيقيَّ، وهي تقول إنَّها نسيت اسمها، قيل إنَّ اسمها الحقيقيَّ هو يَمَامَة، كان عليٌّ يجلس في حضنها عندما بصقت في وجه أحد الرجال بعد أن ناداها باسم يَمَامَة، وقالت له: "يَمَامَة ماتت"، فسألها "إِنْتِ شُو اِسْمِكْ"؟ قالت له: "أنا أخت الشجرة، يا غبيّ، وعليّ ابنها"!

يذكر عليٌّ أنَّها كانت تعيش تحت جِذْع الشجرة من الجانب الذي تغيب فيه الشمس، وتقول إنَّ هذا أفضل مكانٍ في العالَم للعيش، لأنَّها ترغب في النوم مع الشمس. كان بابها مواجِهاً للشمس، تُغلِقه، وتُغمِض عَيْنَيْها، وتختفي مع أغراضها المكدَّسة ما إن تغرب في البحر. لم يرها إنسانٌ يوماً بعد اختفاء الشمس! وعندما سألتْها إحدى الخبيثات لِمَ تُحنِّي شَعْرها بلونٍ برتقاليٍّ؟ أجابتْها "هَادْ لُوْن الشَّمْس ... عْطَتْنِي يَاه". بَنَتْ برَّاكيَّتها تحت الشجرة مباشرةً، كانت حينها ما تزال في الخمسينيَّات، وقد ساعدها مَنْ حولها، عندما أخبرتْهم أنَّها ستصير خادمة المَقَام رَغْم أنَّ هذا كان ممنوعاً على النساء، ووافقوا على بقائها وحمايتها عندما قالت لهم إنَّها يتيمةٌ. برَّاكيَّةٌ من الخشب والصفيح تُسمِّيها بيتاً، يتألَّف من غرفةٍ واحدةٍ، تتكدَّس فيها الأغراض الغامضة! لم يعرف أحدٌ ما فيه سوى عليٍّ. كانت قد حفرت أسفل الشجرة حفرةً في الصخر، كَمَقْعَدٍ لها، وغطَّتْهُ بالوسائد،

وهناك جُرْنٌ حجريٌّ قديمٌ، كانت تَنقع فيه الفواكه والخضار، وتغسل الثياب. كان مسموحاً لها المرور على البساتين، لتقطف الإجاصَ والتفَّاح والخوخ، وكلَّ ما يطيب لها دون حسيبٍ أو رقيبٍ، أمَّا متعتها الكبرى، فقد كانت في صُنْع سيجارةٍ من التبغ البلديِّ، ورَغْم الارتجاف والوَهْن اللذَيْن أصابا أصابعها، فقد كانت ما تزال قادرةً على لَفِّ سيجارة تبغ بِحِرْفِيَّة عاليةٍ، كان المزارعون يتبرَّعون لها بأوراق التبغ، لتفرمَها بنفسها، تأتي بورقة الدخان، تَفرِدُها أمام عينَي الصغير عليٍّ، وتقطعها قطعتَيْن، تشمُّها وتصرخ: "الله الله! على أيَّام الدّخّان البَلَديّ، مِنْ نُوع أَبُو رِيْحَة"، وتروي له قصَّته وقصصاً كثيرةً أخرى، قالت له إنَّ رائحة دخَّان "أَبُو رِيْحَة" هي رائحة القهر الذي عرفه الفقراء الذين عاشوا قبل مئتَي سنةٍ في هذه الجبال، وشرحت له كيف قام المزارعون حينها بعصيانٍ ضدَّ الأتراك، بسبب الضرائب المفروضة عليهم، وكيف تعاونت العائلات الإقطاعيَّة من قرى هذه الجبال مع الأتراك، ولم يستطع المزارعون بَيْعَ محاصيلهم، وتُركت لمدَّة سنةٍ في بيوتهم، سنة ماتوا فيها جوعاً. كانوا يستخدمون غرفةً واحدةً، ينامون فيها، ويأكلون، ويشربون، ويُربُّون حيواناتهم، ويعلِّقون خيطان التبغ، ويُشعلون نار مواقدهم، ويتوالدون في الغرفة ذاتها! قالت له إنَّه نوعٌ نادرٌ، لأنَّه يُخزِّن رائحة (البني آدم)، فقد تشرَّبت أوراق التبغ روائح حيواتهم لسنةٍ كاملةٍ، ثمَّ باعوا محاصيلهم للتجَّار المصريِّيْن عبر سماسرة، كانوا من أهالي الجبال، ومن إقطاعيِّي العائلات الكبيرة التي يعملون عندها. تقول له، إنَّه كانت حينها للناس كرامةٌ، وإن أغنياءهم من تلك العائلات ازدادوا غنىً، أمَّا المزارعون الذين باعوا روائحهم وقهرهم، فقد ازدادوا فقراً، وهذا لم يمنعهم أن يتدرَّبوا على إنتاج هذا النوع من التبغ بعد أن استحسنه المصريُّون، وصار يُعرَف باسم التبغ اللاذقانيِّ. ستقول له إنَّها عملت في مؤسَّسة الريجي قبل أن يتمَّ احتكارها من قِبَل الدولة، وإن

أنفها يميِّز أنواع التبغ من رائحته، دون النظر إليه! كانت تضحك وهي تروي لعليٍّ الذي عرف حكاياتٍ كثيرةً منها، أخبرتْهُ أنَّه في وقتٍ ما ستحكي له حكايتها الحقيقيَّة، حين يصير رجلاً، ستفعل ذلك؛ وَعَدَتْهُ.

في السنوات الخمسين الأخيرة، منعوها من تنظيف المَقَام. قديماً كانوا يسمحون لها بذلك تحت إشراف خادم المَقَام. في تلك الأيَّام الغابرة قبل عشرات السنين، الأيَّام التي لم يعُد يذكرها أحدٌ منهم، وقد كانوا جاهزين للنسيان، نسيان الحياة بحُلْوِها فقط؛ المُرُّ لا يفارق ذاكراتهم! حينها كان مَنْ يخدم المَقَام رجالٌ صوفيُّون زُهَّادٌ، وكان المشايخ يقضون أيَّامهم في القراءة والكتابة، وتعليم أصول اللغة والدِّيْن والشِّعْر، ولهم سلطةٌ روحيَّةٌ واجتماعيَّةٌ على طائفتهم، ثمَّ نشأت طبقةٌ جديدةٌ من المشايخ، ظهروا في ثمانينيَّات القرن الماضي مع تعزيز سلطة الرئيس الأب، وهؤلاء لم تقترب منهم الحْمَيْرُوْنَة، أخذت علومها من شيوخٍ كبارٍ رحلوا، وقد تعلَّمت كثيراً منهم، كانت تصغي إليهم، وتتابعهم، وتمتثل لِمَا يقولونه، ولم ينتبه أحدٌ إلى أن المرأة ذات الشَّعْر الأحمر التي تنادي في الليل نفسها بأسماء غريبةٍ، تحفظ ما يقولونه كلَّه، وأنَّها يوماً بعد يومٍ صارت تردِّد الأبيات الشِّعْرِيَّة لرجالات دِيْنٍ كبارٍ وأمراءَ وأولياء، وتحفظ القرآن غيباً، وتُغنِّيه في الصباحات، وكان يحلو لهم صوتها الجذِل الرخيم. حفظ عليٌّ منها الشِّعْر والقرآن وأصوات الشجر والطيور، وكان مواظِباً بشكلٍ شبه يوميٍّ على زيارتها، وأثار هذا حفيظة نهلة، خاصَّة عندما ردَّد الأهالي أنَّ الحْمَيْرُوْنَة أصابت عليَّاً بمَسٍّ من جنونها، كانت الحْمَيْرُوْنَة تنظر إليه بفخرٍ وهي تقول "هَادْ رَحْ يْكُوْنْ رَجُلْ دِيْنٍ وحَقّ"، ثمَّ نسيت أُمُّه الغاضبةُ الأمرَ وهي منشغلةٌ في العمل اليوميِّ في أراضي الآخرين.

يرفع عليٌّ يده، ويتَّكئ عليها، ثمَّ ينهض، ويرى مكان إصابته، كانت رِجْلُهُ اليمنى قد شُقَّت من أعلى الفخذ وحتَّى منتصف رَبْلَة الساق، تمزَّق القماش، وانفتح جرحٌ طويلٌ، لكنَّ استحضار الحْمَيْرُوْنَة يجعل عضلاتِ وجهه ترتخي، ثمَّ يمرِّر أصابعه على حوافِّ جرحه العميق، تَحرِقه لزوجة دمه، ويتأكَّد أنَّ ما رآه بداية وعيِه لم يكن سوى خيالات جنازة أخيه الكبير في المَقْبَرَة، حيث كانت الحْمَيْرُوْنَة هناك - ولأوَّل مرَّة منذ زمنٍ طويلٍ - مضطربةً، تنظر إليه وإلى التابوت بقَلَقٍ، ووقفت إلى جانبه، وهي تَهمِس متلعثمةً: "يَمْكِنْ إِجَا الوَقْتْ اللِّيْ تَتْرُكْ فِيْهْ الضَّيْعَة، واااقَلْبِي"، ثمَّ ابتعدتْ عنه، وأمسكتْ بيد أُمِّه، وسحبتْها، لتتسلَّل بين أقدام الرجال. سوف يُحرِّك رِجْلَهُ الجريحة، ويذكر أنَّها بصقت ذلك النهار في وجه (الزين)، رَغْم ذلك حانت منه التفاتةٌ باتِّجاه الشمس، هناك حيث يتحرَّك القرين، وينظر إلى الشمس متَّكئاً مثله على مَرْفِق يده اليمنى. كان قد نسيه حينها، ويريد أن يعرف المسافة التي تفصل الشمس عن حدود قمَّة الجبل المقابل، ليُقدِّر كم من الوقت بقي من النهار.

تلك الكرة سقطت!

يذكر منطقة الألم في الرأس، وكيف تعفَّر وجهه بالتراب وهو يسقط من أثر تلك الضربة في الموضع نفسه الذي يُؤلمه الآن. شتَّان المقارنة بين حَدَّي الألم! لكنَّه رآها، رأى كرة القَدَم التي كان قد رماها تدور بحركةٍ سريعةٍ، وتختفي في دوَّامةٍ، ثمَّ تُعاوِد الظهور، وتسقط فوق رأسه.

لا يحاول عليٌّ أن يتحرَّك هذه اللحظة، فخيال الكرة الذي هوى به إلى حفرةٍ سوداءَ يُشوِّشه ثانية، رَغْم أنَّ خَدَّه يلامس التراب، ويحسُّ بالجذور التي يظهر بعضها كأفاع ملتويةٍ، ويشمُّ رائحتها المألوفة. كان مُعَلَّقاً في مكانٍ ما بين الحياة والموت، أو بين الموت والحياة، هل هناك فرقٌ شاسعٌ بين التوصيفَيْن؟ لا يفكِّر بذلك الفرق، لا يحبُّ اللغة، يفضِّل هُيامَهُ في عالَمه، ثمَّ يسمع الصياح؛ يتشقَّق كرقائقَ حادَّةٍ يشطره، ويأتيه بأنينٍ واهنٍ. وتتغضَّن جبهته، ويختفي العالَم من حوله، ليغرق في نوبة الألم، تُعاوِده الأصوات، تأتيه من رأسه، ويسمع الصياح نفسه والكرة تدور وتدور: "يا هُووو ... يا نَاسْ، يا عَالَمْ، مَاتْ الرَّئِيْسْ، الله لا يْوَفِّقْكِنْ كِلْكِنْ، مَاتْ رَئِيْسْنَا ... يا هُووو، يا نَاسْ، يا عَالَمْ"، وتصرخ الجملة في أُذُنه، وتُعاوِد الإلحاح.

مَنْ قال تلك الجملة؟ "يا هُووو ... يا نَاسْ ... يا عَالَمْ ... مَاتْ الرَّئِيْسْ ..." وهي تأتيه الآن، إنَّه في حالة عدم توازُنٍ، تحيط به أنواع المشاعر كافَّة، مُعلَّقٌ في الهواء، ويحترق في النار، ويهوي إلى حفرةٍ عميقةٍ، ويرى

الكرة التي سقطت، وتدحرجت في ملعب المدرسة الصغير، إنَّه في مدرسته، يوم الخوف ذاك. يذكر تلك الضربة التي تلقَّاها من صاحب الدكَّان الملاصق للمدرسة، الرجل النحيل، الأسمر ذي الخدود الناتئة الذي كان قادراً على جعل زوجته تنتفخ كلّ تسعة أشهرٍ، وكان عليٌّ يراها دائمة الانتفاخ، وتقف إلى جانب زوجها في الدكَّان تحمل الصناديق الكرتونيَّة، وتُفرِغها، أمَّا صغارها الذين يتكاثرون، فقد كانوا مثل سلسلةٍ عجيبةٍ من مخلوقاتٍ نحيلةٍ ضئيلةٍ، تتقافز حولها، وكان يطيب له أن يُشبِّههم بالديدان السمراء! صاحب الدكَّان ذاك الذي ضربه بتلك الكرة، ثمَّ انهال على الجميع بالضرب، كان يتباهى بأولاده الذين يبنون غرفاً صغيرةً مِن حوله، يُنجبون فيها أولاداً أو ديداناً تنتشر في الجبال هنا وهناك، كما يصفهم عليٌّ، وعلى الرَّغْم من سنواته الخمسين، لم ينقطع صاحب الدكَّان عن تلقيب نفسه بالقرد "الملفلف"، وعليٌّ يعرف معنى هذه الكلمة التي تعني أنَّه ذكيٌّ، ولا يضحك منها أو يستغربها، ويعرف، أيضاً، أنَّه تلقَّى لكمةً هائلةً منه بعد أن سدَّد ضربة الكرة تلك، الكرة التي تتراقص أمام عَيْنَيْه وهو يحاول الوصول للشجرة. "يَا هُووووو، يَا نَاسْ، يا عَالَم ... مَاتْ الرَّئِيْسْ، اِنْضَبُّوا بِبْيُوتْكِنْ، والله، لَنْمُوتْ كِلْنَا"، وصرخ الأطفال، ولم يصرخ عليٌّ! كانوا أكثر من عشرة أولادٍ في باحة المدرسة التي ثُقب جدارها بدائرةٍ، تكفي لمرور أجسادهم الصغيرة. مدرسةٌ ابتدائيَّةٌ وسط القرية، وفيها المساحة المنبسطة الوحيدة المتاحة، ليتجمَّع الأولاد، ويلعبون كرة القَدَم، وعليٌّ لم يكن من مُحبِّي كرة القَدَم، لكنَّه لحق بأخيه الكبير. ربَّما كان في السادسة أو السابعة، وقد أتقن القراءة والكتابة، ولا يزال يتردَّد إلى المَقام مُستمعاً إلى الشيخ العجوز، والأشعار التي تردِّدها الحْمَيْرُوْنَة، كان ذلك اليوم من حزيران، عندما صرخ فيه أبوه لينزل عن السطح، ويساعده في نقل الحجارة لترميم الجدار الحجريِّ الذي انهار بفعل الثلوج، فقفز هارباً

لاحقاً بأخيه الذي ذهب إلى ملعب المدرسة، ليُسجِّل الأهداف، هكذا يصير الرجال رجالاً بتسجيل الأهداف، هكذا أخبره أخوه، وقد لحق به، ولم يكن يظنُّ أنَّه سيُضرب بشدَّةٍ على يد الرجل القرد "الملفلف"، الذي نطَّ، وقفز، وضرب الأولاد وهو يصيح بأنَّ الرئيس قد مات!

يرى أمامه الكرة ذات المربَّعات الغريبة البيضاء والسوداء، سيعرف بعد ذلك أنَّ تلك ليست مربَّعاتٍ حسب الهندسة التي برع فيها أخوه الأصغر، وسيظلُّ مفتوناً بتلك الكرة التي أحبَّها، فهي تطير في النهاية، تطير بين الأرجل، وتعود إلى الأرجل، وتُلاعِب الأرض والهواء، وهي قد تكون مثله تُحبُّ التأرجح واللعب مع الريح: "شُوْطْ"، يقول أخوه، ويرفع يده عالياً، فيشوط عليٌّ، ويقفز قلبه! ثمَّ تكون هناك لحظاتٌ يرتفع فيها في الهواء، ويراقب سرعة الكرة التي رماها، وتقفز الكرة، وينظر الأولاد إليها باندهاشٍ، وتجتاز السور المدرسيَّ، وتسقط في مكانٍ ما، وينظر الأخ الكبير إلى عليٍّ باعتزازٍ، وينفخ صدره! ويغضب الأولاد، فقد ضاعت الكرة، ثمَّ تبيَّن لهم أنَّ الضربة القويَّة لعليٍّ كانت قد سقطت على رأس صاحب الدكَّان الذي كان ينوح باكياً، ويتقدَّم منهم وهو يتجاوز ثقب جدار المدرسة منحنياً وصارخاً: "يَا وْلَادْ ستِّين كَلْبْ، عَمْ تِلْعَبُوا ورَئِيْسْنَا مَاتْ، يلَّا تَشُوْفْ، ارجَعُوا وانْضَبُّوا بِبْيُوتْكِنْ، مَاتْ الرَّئِيْسْ، يَا نَاسْ ... والله لَتمُوتُوا كِلْكِنْ"، فيقترب منه الأولاد فاغري الأفواه، إذ لم يسبق لهم رؤية رجلٍ يبكي ويقفز، ويَلطِم برأسه كالنساء، ويَرَوْن مخاطه الذي لا يتوقَّف عن السيلان! وعليٌّ يفعل مثلهم، ثمَّ ينظر إلى السماء الزرقاء يراقب يَدَيْ صاحب الدكَّان كيف يمدُّهما إلى الأعلى متضرِّعاً: " يَا رَبّ ... يَا رَبّ، تِرْحَمْنَا، يَا رَبّ!"، وينظر الأولاد إلى بعضهم بخوفٍ وحَيْرةٍ! وعليٌّ لا يجد ما يُخيف في تلك السماء، ويرتجف قلبه، لأنَّ الأولاد بكوا وصوت صاحب

الدكَّان يلعنهم، ويلعن أُمَّهاتهم، ويصفعهم، كانت الصفعة التي تلقَّاها قد أوقعتْهُ أرضاً، والصفعات المتتالية التي تلقَّاها بعض الأولاد جعلتْهم يخرسون، ولا يفهمون ما الذي يجب عليهم القيام به عندما يُعاود زعيقه: "يَلَّا، رُوحُوا اِنْضَبُّوا بِبْيُوتْكِنْ، والله، لَتِبْكُوا أَلْفْ سِنِة، والله، لَنِتْبَهْدَلْ مِنْ بَعْدُه!"، فيصرخ به ولدٌ أن يتركهم وشأنهم، ثمَّ تظهر كَتَّته الكبيرة، وتشدُّ شَعْرها، وتُوَلْوِل بأن يتوقَّفوا عن اللعب احتراماً للراحل، والذي تبيَّن أنَّه لم يكن خالداً. تجمَّع الأولاد حول الكرة التي رُمِيَت بين أقدامهم، وبصق عليها صاحب الدكَّان، وكلٌّ منهم يتلمَّس أثر الصفعات على وجهه أو رأسه، وبكوا من شدَّة الوجع، لكنَّ عليَّاً لم يبكِ، وكان على وشك الانقضاض على صاحب الدكَّان عندما أوقفه الأولاد، وركضوا قافزين عبر الجدار تاركين المدرسة المقفلة وباحتها، ثمَّ نظروا إلى الشارع الضيِّق وإلى صاحب الدكَّان، فعاود صراخه: "يَلَّا، اِنْضَبُّوا بِبْيُوتْكِنْ ... يَلَّا"، نظروا إلى الصورة المعلَّقة على الجدار، وإلى جدران بيت صاحب الدكَّان الملاصق لها، ورأوا الصور الكثيرة للرئيس، فحدسوا أنَّ شيئاً خطيراً قد وقع، وقد غاب عنهم أنَّ هذه الصور كانت هنا منذ زمنٍ طويلٍ، ليست صوره فحسب، بل وتمثاله في المدينة، كانوا يجدونه في كلِّ مكانٍ، كانوا ينظرون إلى بعضهم فَزِعِيْن، وعرفوا أنَّ عليهم الركض إلى بيوتهم، فالرجل الذي يرونه منذ أن عرفوا الحياة، وكان حاضراً في كلِّ مكانٍ قد مات، الرجل وصوره على كُتُبهم المدرسيَّة، وجدران مدرستهم وفي شاشة التلفزيون، وعلى جدران البيوت، وفي مكتب المدير وداخل الصفِّ على الجدران وعلى السَّبُّوْرَة، هذا الرجل مات! قال الأخ الكبير لعليٍّ: "يَا وَيْلَاه ... ولَكْ طِلِعْ الرَّئِيْسْ بِيْمُوْتْ، والله كِنْتْ مْفَكِّرُو أَبِيْمُوْتْ ... طِلِعْ بِيْمُوْتْ مِتْلُو مِتِلْ كِلّ النَّاسْ!"، ركضوا وتجاوزوا دروب القرية، وكلٌّ منهم تسرَّب في دربٍ مختلفٍ، وركض عليٌّ وأخوه بسرعةٍ، حتَّى التصقت كعوبهما بمؤخِّرَتَيْهما، ووَجَبَ عليهما أن

يركضا مسافةً أبعد من الأولاد، فبيتهم يقع في الطرف الأبعد للقرية، ورأوا الحركة الغريبة للبشر، رأوا النساء وهنَّ يخرجْنَ من البيوت يُوَلْوِلْنَ، ثمَّ التفت عليٌّ إلى جهة المَقَام، ورأى السِّنْدِيَانَة، فكانت واقفةً على حالها، فاضطرب، وفكَّر أن يترك أخاه، ويدخل المَقَام، ويرى ما تفعله الحْمَيْرُوْنَة، ثمَّ ظنَّ أنَّ الأرض ستنشقُّ، وستبتلعهم، كما كان يقول لهم معلِّم المدرسة، فهو لطالما سمع تلك الجملة، "اِنْشَاالله بْتِنْشَقّ الأَرْضْ، وبْتِبْلَعْكِنْ، وتْرَيِّحْنِي مِنْكِنْ"، وكان لا يفهم حينها هذا كلَّه، لكن الحْمَيْرُوْنَة قالت له إنَّ الأرض انشقَّت وبلعت الناس، وانقلبت عاليها سافلها في هذه السهول قرب البحر، مرَّات ومرَّات انقلبت، وهذا يسمُّونه زِلْزَالاً، وكبر وعرف أنَّ الأرض هي مَنْ تنقلب، وليسوا هم! ولم يفهم لِمَ كان معلِّم المدرسة يدعو عليهم بأن تنشقَّ الأرض وتبلعهم، لكنَّه سمع تلك الجملة وهو يركض مع أخيه إلى البيت، قالتْها امرأةٌ عجوزٌ، "يا رِيْتْ، انشَقِّتْ الأَرْضْ، وبَلْعِتْنِي قَبِلْ هَاليوْم"، ثمَّ تخيَّل أنَّ الأرض طنجرةٌ كبيرةٌ، يتهاوون فيها، ثمَّ يأتي كائنٌ جبَّارٌ عملاقٌ، اسمه الرئيس، يضع الغطاء على الطنجرة، ويغليهم فيها أحياء، وربَّما كان هو العملاق الذي سيحميهم حين ستنشقُّ الأرض، وتبتلعهم وحوشُها! كان يقول لنفسه وهو يركض ولم يبكِ، بكى الأخ وهو يراقب البشر الراكضين والباكين، وأمسك بيد عليٍّ، وشدَّها، واقترب منه، قائلاً: " مَا تْخَافْ"، وانهمرت دموعه! وكان يصرُّ بأسنانه، ويَعُضُّ على شَفَتَيْه، وتنهمر قطرات العَرَق من جبهته، يركض ويركض، حتَّى شعر ببَلَل سترته القطنيَّة، حينها كان يجيد الصفير والبقاء وحيداً، هذا أكثر ما كان يجيده، أن يبقى وحيداً، وهو أمرٌ بالنسبة إلى البشر يبدو غبيَّاً، لكنَّه يعرف ومنذ تلك السنوات القليلة التي مرَّ بها على الحياة، أنَّه يريد ذلك، البقاء وحيداً مع شجرته مَزهُوَّاً بعالَمه الرحب. العالَم الذي لا يعرفه الآخرون، ولم يستطع حينها اللحاق بأخيه الذي شدَّ على يده، وجرَّه وراءه، فقد

شعر أنَّه لا يتنفَّس جيِّداً، وأخوه يركض وعليه اللحاق به وإلَّا سيتعرَّض للضرب بعصا الرمَّان، عصا أبيه النحيلة والطويلة، والتي تُطلِق أصوات هَسِيْسٍ مع كلِّ حركةٍ، ثمَّ نظر أخوه إليه صارخاً "عَجَّلْ، يا كُدِيْشْ". وهنا انتبه الأخ الأكبر أنَّ عليَّاً يحمل الكرة بيده، ولم يتركها، كان يمسكها بقوَّةٍ جاذباً إيَّاها إلى صدره من جهة القلب، فوقف الأخ مفزوعاً، وصفعه، ووقع عليٌّ، ولم يبكِ، واحتضن الكرة، ثمَّ أمسك بيده، وركضا، والتصقت كعوبهما بمؤخَّرتَيْهما ثانيةً حتَّى بدوَا أنَّهما يطيران، وعندما وصلا البيت، صَعِد عليٌّ السُّلَّم الخشبيَّ إلى السطح، وسمع جارتهم تنادي بصوتٍ بعيدٍ على أُمِّه: "انزلي، وَخَيْتِي، انزلي، والله إِجِتْ سَاعِتْنَا!"؛ وتخرج أُمُّه باكيةً، وتدخل بيتها مع أولادها، وتغلق الباب. نسوا عليَّاً وهو على السطح يحتضن الكرة، ثمَّ رأى جيرانهم القريبين والبعيدين، رآهم ينسلُّون ويتسرَّبون ويختفون، ويُقفلون نوافذهم، ويسمع أصوات نَدْبٍ وعويلٍ، ويمرِّر أصابعه على مَلمَس الكرة. ربَّما سيأتون للبحث عنها، لكنَّه كان مطمئنَّاً بانشغال الأولاد وأهاليهم بموت الرئيس الذي ظنُّوا أنَّه لا يموت، وهو ينتظر على السطح أمام الجبل المقابل، ويراقب السفح والبيوت، ينتظر أن تنشقَّ الأرض، وتبلعهم جميعاً كما قال لهم معلِّم المدرسة، ثمَّ فكَّر أنَّه قال جملةً أخرى، إنَّه سيضربهم، ويضربهم حتَّى تنشقَّ الأرض، وتبلعهم، وهذا أمرٌ لا يخصُّ موت الرئيس. يستعيد اليوم بعد ثلاث عشرة سنةً أنَّ الأرض بقيت على حالها، ولم تنشقّ وتبتلعهم، وهو بقي مع كرته يراقب الشمس والغابة في أسفل سفح الجبل، ثمَّ وقف واقترب من طرف السطح المطلِّ على المنحدر، وثبَّتَ الكرة بهدوءٍ وإتقانٍ، وعاد بخطواتٍ إلى الوراء، وحدَّق بالغيوم النادرة في السماء، وشَاطَ الكرة في الهواء، ورآها وهي تُحلِّق عالياً، ثمَّ تهوي وتغيب في الوادي، واستدار، ولمح أغصان السِّنْدِيَانَة عند المَقَام، ولم يستطع تمييز الناس هناك، لأنَّ أغصان الأشجار

تَحجُب الرؤية عنه، وقد كان بعيداً كفايةً، كي لا يميِّز بين مَنْ يتجمَّع هناك، ثمَّ اقترب من حافَّة السطح، وفَرَدَ ذراعَيْه متخيِّلاً حركة الكرة وهي تسقط في الوادي، وكان على وشك أن يهمَّ بالطيران خلفها عندما سمع صراخ أُمِّه التي أشارت له أن يلحق بهم، وكانت وأخوته يتسرَّبون من البيت ثانيةً، ويركضون باتِّجاه المَقَام، فنزل بهدوءٍ، ولحق بهم، ولم ينتبه أنَّه كان حافياً، نسِيَ "شحَّاطته" البلاستيكيَّة على السطح، وركض بلا توقُّفٍ، ووصل حيث يجتمعون، ولم يلمح الحْمَيْرُوْنَة، سمع النحيب والعويل، وانسلَّ بين الجمع الغفير، ورأى الوجوه الفزعة والخائفة والكلام يتطاير هنا وهناك، "وَحْدُوا الله، يا جَمَاعَة" يقول شيخ المَقَام العجوز، بينما الشيخ الجديد يجمع حوله شباباً، ويتحدَّث إليهم بهمسٍ، واستطاع أن يدخل المَقَام، وأن ينسلَّ بين الأقدام، وكانت الحْمَيْرُوْنَة تجلس في الزاوية، ومن حولها نساءٌ ورجالٌ، يُشعِلون البخور، ويُتمتِمون، ولمحَ تلك اللوحة التي تتجمَّع فيها صور أوليائهم الصالحين، ومن بينها صورة رئيسهم. لم يعرف أحدٌ مَنْ علَّق تلك اللوحة هناك، ثمَّ رأى امرأةً تحمل صورة الرئيس، وتتمرَّغ بالبكاء، فانحشر بين قَدَمَي الحْمَيْرُوْنَة التي كانت تراقب بهَلَعٍ شبه غائبةٍ عن الوعي ما يدور حولها، اقترب منها، ونظر في عَيْنَيْها، فرأى فراغاً أبيضَ، ولم تنظر إليه، وتأخذه في حضنها كالعادة، ولم تَنْبِس بحرفٍ، كانت تتطلَّع بتضرُّع إلى الدائرة الأخيرة الخضراء في عمق قبَّة المَقَام. أمَّا صاحب الدكَّان، فكان لا يزال يصرخ "يَا وَيْلْكِنْ ... الله يِلْعَنْ أَبُوْكِنِ كِلْكِنْ ... مَاتْ رَئِيْسْنَا"! ومرَّت أيَّامٌ ثقيلةٌ، صمتٌ وتوجُّسٌ، وتوقَّف عليٌّ عن سماع العويل، فقد هرب إلى أحراشه، ونزل الوادي وهو يفكِّر بكرة القَدَم، يختفي في النهار، وينام في الليل على سطح البيت، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى عادت البهجة إلى النفوس، ربَّما شهرٌ! كان الصياح يعلو ثانيةً في دروب القرية، صراخ صاحب الدكَّان نفسه استمرَّ، ولكنَّه كان هذه المرَّة صراخ الفرح والغِبْطة، فبعد

مرور ذلك الشهر، كان هو نفسه مَنْ رآه عليٌّ وهو يقوم بحركاته البهلوانيَّة نفسها، ويقفز وينطُّ، ويصيح ويصرخ بالناس، ويدور بين البيوت، ويحثُّ كَتَّاتِه وأحفاده، وأهل القرية على الزغاريد، مُلوِّحاً بيده: "عَاشْ الرَّئِيْسْ ... عَاشْ الرَّئِيْسْ"! وعندما فكَّر عليٌّ حينها كيف يموت الرئيس، ثمَّ يعيش، ظنَّ لوَهْلَةٍ أنَّه خالدٌ! لم يكن يعرف أنَّ هذا الرئيس هو ابن ذاك الرئيس، وأنَّ الجملة التي وجدها غريبةً "مَاتْ الرَّئِيْسْ عَاشْ الرَّئِيْسْ"، لم تكن على هذه الدرجة من الغرابة، فقد أصبح ابن الرئيس رئيساً جديداً، وقائداً للقوَّات العسكريَّة، وأميناً عامَّاً للحزب الذي خلَّفه له والده.

عليٌّ لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الأمور! كان مشوَّشاً ويراقب صاحب الدكَّان وحركاته المسلِّية، يذكر أنَّه ضحك يومها! ثمَّ نسيَه عليٌّ، ونسيَ كيف عاش باطمئنانٍ وسعادةٍ بعد ذلك اليوم، وتذكَّره، فقط، في الحرب، حين كان يلمحه يمشي وراء جنازات أولاده، وكان حينها يبدو كشجرةٍ يابسةٍ!

يُعاوِد عليَّاً الآن الإحساسُ بألم رأسه العميق مُراقِباً خيالاً لحركة الكرة التي تدور أمامه، ثمَّ تتلاشى. كرة القَدَم التي اختفت في الوادي، ولم تسابق الغيوم، وتصعد وتختفي في السماء، كما ظنَّ وهو يشوطها بقوَّةٍ مُحدِّقاً في غيمةٍ عابرةٍ. تنتابه مرارة السقوط ذاك، والذي يهوي فيه الآن مع عجزه وجراحه، وهو يعتقد أنَّ حياته الماضية والحاليَّة لا تساوي أكثر من عدَّة أمتارٍ بين مكان القذيفة وبين جِذْع الشجرة، حياةٌ قصيرةٌ وكاملةٌ وكافيةٌ لتتوقَّف هنا، وعندما يشعر أنَّ تلك الأمتار المتبقِّية هي حياةٌ كاملةٌ بقيت له، يسأل نفسه عمَّا يفعله هنا؟! ومَنْ يقاتل؟! ومِنْ أجل مَنْ؟! ومَنْ هو؟! كانت المرَّة الأولى التي يفكِّر فيها بهذا السؤال، مَنْ هو فعلاً؟! ومَنْ كان؟!

هل الأمتار القليلة التي تفصله عن جِذْع الشجرة تُلخِّص حياته؟ هل هي حياةٌ تلك التي عاشها أم مرورٌ عابرٌ وخاطفٌ؟! وهل سيكون نجماً في السماء؟! واستعاد وجه أخيه الذي كان مُصرَّاً على القتال في خطوط الجبهة الأماميَّة للدفاع عن الوطن، لا يجد جواباً لأسئلته المتدفِّقة، أيَّة حياةٍ غريبةٍ عنه يراها؟! حياة كائنٍ آخرَ، وكأنَّه يرى شابَّاً في التاسعة عشرة من عُمُره يُرمى في قمَّة جبلٍ، وترميه طائرةٌ بقذيفةٍ عن طريق الخطأ، وكأنَّه هو نفسه يحاول أن يفهم ما الذي يفعله هذا الشابُّ في الأمتار القليلة المتبقِّية له ليختار الحياة!

حرَّك أضلاعه، وتمطَّى، وفتح عَيْنَيْه ليُصدِّق أنَّه في حياةٍ، اسمها بضعة أمتارٍ، فرأى خيال كرة القَدَم نفسها يطير، أطلق تنهيدةً، وكان حينها وهو يسقط في هاوية أسئلته وعذاباته، كان حينها في عزلةٍ عن نفسه، يفكِّر بذلك الآخر، وأراد أن يعرف أمراً واحداً فقط، وهو إن استطاع أن يدير وجهه الآن، متجاوِزاً ألم رأسه الذي ذكَّره بضربة كرة القَدَم تلك، أن يعرف فقط إن كان ذلك الآخر سوف يرفع رأسه، فما يشغله في لحظةٍ سوف تتبدَّد سريعاً، إن كان ذلك الآخر هو روحه التي تنتظره؟

مكتبة telegram @t_pdf

ما إن صفا ذهنه ثانيةً حتَّى عاوده الثِّقَل الغريب في أسفل رأسه، ودفعه للتراخي؛ إنَّه يتهادى فوق بساطٍ من أوراق الشجر، نزل به إلى الحفرة، ورَغْم إحساسه أنَّه بقي ساعاتٍ يهوي في الرطوبة والخَدَر، إلَّا أنَّ الزمن الحقيقيَّ لتهاويه ذاك لم يتجاوز الثواني. يدير وجهه باتِّجاه الشجرة، ويراها أمامه، ثمَّ ينظر إلى الجهة الأخرى، كان ضعيفاً جدَّاً ليُصدِّق ما يحصُل، وإن كان فعلاً لا يزال في عالَم الأحياء، وفي أثناء استدارته، يرى أشجاراً مشتعلةً، فيشعر من جديدٍ برضى، لأنَّ رأس الجبل ذلك كان أجرد، ولم تكن الأشجار قريبةً من بعضها البعض، ثمَّ يلمح الاحمرار والتوهُّج في الأشجار البعيدة المشتعلة.

تنزلق بضع حبَّاتٍ من الطين في عَيْنَيْه، ويرى التكوُّر الصغير والدقيق لتلك الحبَّات التي تسقط تِبَاعَاً، لقد تحرَّك ثانيةً، وتحرَّك التراب والشجر والطين معه، لكنْ، من أين يأتي الطين؟ رجَّ رأسه، ليستفيق، وتحرَّك سائلٌ في تجاويف قِحْفِهِ، شعر باهتزازه، ثمَّ انتقل الصوت إلى أسفل رقبته، وتخيَّل لوَهْلَةٍ أنَّ جِذْعاً ما ينمو من ظَهْره، وهو ينظر إلى الشجرة، ويستطيع التيقُّن من أنَّه أمام السِّنْدِيَانَة تلك ورَغْم تأكُّده من هذا الأمر مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، فقد كان الخوف يأكله من قلبه، ويجعله لا يُصدِّق ما يراه، خوفٌ يعرفه ما إنْ يذكر وجه نهلة، ويعرف كيف تنمو وتختبئ الوحوش في عيون الأُمَّهات الثَّكَالَى، وتفترسهنَّ في الليالي الباردة!

تساقطت وُريقاتٌ من الأغصان. يعرف ما تفعله أغصان السَّنْدِيَان! تُلقِي بأوراقها أرضاً، وتتخلَّص منها ببساطةٍ. للشجر حكمةُ الاستغناء. الحْمَيْرُوْنَة

ردَّدت على مَسمَعه هذه الجملة، وكانت تُرغمه أن يردِّد كلامها، كأن تقول: "أنا شجرةٌ"، فيردِّد وراءها: "أنا شجرةٌ"، ويلحق بها من مكانٍ إلى مكان، ويتعلَّق بثوبها الطويل الملوَّن، وتُخبره أنَّها ستُعلِّمه كيف يصمت، كما تفعل الأشجار، ومرَّة قال لها مستغرباً، وكان لا يزال في الثامنة، غاضباً من الجملة التي تردِّدها كما تتنفَّس على أنَّها شجرةٌ: "بَسْ إنتِ بْتِحْكِي كْتِيْر"، حينها ضحكت وقالت له: "لأنُّو أَنَا مَانِي شَجَرَة ... إَنْتِ الشَّجَرَة"، وكانت نهلة تنهرها عن قول هذا للصغير في كلِّ مرَّة كانت تدهن جسده النحيل بالزيت داخل المَقَام، وكانت تفعل هذا بشكلٍ منتظمٍ، فتسبُّها الحْمَيْرُوْنَة بتمتمةٍ مُبهَمَةٍ.

ما يفكِّر فيه الآن تلك الجملة؛ "أنا شجرة"، ويشمُّ رائحة الزيت عندما كانت تمرِّر أُمُّه أصابعها الخشنة على رقبته. كان يسمعها تُتَمْتِم، وتدعو الله وصاحب المَقَام أن يشفيَ ابنها من شروده الدائم، ثمَّ يذكر أنَّ حَكَّةً غريبةً تصيبه كلّ مرَّة في بطنه، وأنَّه كان يتألَّم من ضغط أصابعها، ولا يقوى على التأفُّف، هذه ليست صدفةً! يفكِّر ويمرِّغ خَدَّه الأيمن بالأرض، فتنزاح كومة الأوراق وهو يُحرِّك برأسه، فيشعر بالطين، ثمَّ يَحفِر برأسه، هو لا يَحفِر، لكنَّه يفكِّر أنَّه يستطيع أن يَحفِر، كان لديه يوماً مِجْرَفَة، يَحفِر بها، وقد أكل ذراعها ومقبضها الخشبي جِلْد كفَّيْه، وهو يشعر أنَّ رأسه مثل مِجْرَفَة، تستطيع تفتيت الصخر، لديه القوَّة أن يضرب به في الأرض، ويَكشِط ما حوله، ويَحفِر التراب القليل. هذه الجبال صخريَّةٌ مثل جبال قريته وهي امتدادٌ لها، في الواقع لم يفكِّر قبلاً بذلك، سيَحفِر بأسنانه التراب، ويَبصُقه، ثمَّ يأكله ويَبصُقه، سيَحفِر من حوله مُمهِّداً طريقاً نحو الشجرة، مُحرِّكاً رأسه يَمْنَة ويَسْرَة، ليشعر بجذور الشجرة، ويستمرَّ بتدوير رأسه في التراب، ثمَّ يسمع صوتاً، إنَّه حفيف الشجر! هو لا يُسمِّيه حفيفاً،

فيرفع رأسه، ويرى الرأس على الطرف الآخر، كان يتحرَّك، فيشدُّ جِذْعه، إنَّه يتحرَّك ... يتحرَّك، ويصير مَرْفِقه دعامةً له، ثمَّ يتقدَّم، ويرمي بجِذْعه، فيرتطم رأسه بالتراب، ويعرف أنَّه اقترب من الشجرة، لم يقترب تماماً، لكنَّه تقدَّم، وهذا كافٍ! هذه الشجرة يحفظها، ليست كباقي الشجرات التي عرفها في حياته؛ شجرة البيت وشجرة المَقَام، وهو، منذ شهرٍ، يعيش مع شجرته الثالثة هذه، أليس غريباً أنَّها سِنْدِيَانَةٌ أيضاً؟ ثلاث شجرات سَنْدِيَان! لوَهْلَةٍ وهو يرفع كوعه ثانيةً، ليتقدَّم خطوةً أخرى بعد أن أكل التراب وبصقه، يحاول تحويل كوعه من جديدٍ إلى دعامةٍ ثابتةٍ لتحريك جسده المعطَّل، شعر بطمأنينةٍ ما، لا يمكن تخيُّلها لشابٍّ، لم يبلغ العشرين بعد، ولا يعرف إن كان على قيد الحياة أم في طريقه نحو العالَم الآخر، طمأنينةٌ خاطفةٌ! كانت أحاسيسه من ذلك النوع المُبالَغ به، والتي لا يمكن توقُّعها! وربَّما يبدو من المستغرب أن يطمئنَّ ولو لوَهْلَةٍ، لكنَّ السِّنْدِيَانَة كانت علامةً ما له، إنَّها ترعاه، من حسن حظِّه أنَّه في جبال اللاذقيَّة، وليس كما كان أخوه، حيث أكلت جسده الصحراء في ريف حمص الشرقيِّ.

الأشجار بسيطةٌ ليست مثل البشر، وهذا أمرٌ يفهمه، وهي تُشبهه، وهو يُصدِّق ما قالتْهُ الحْمَيْرُوْنَة بأنَّه شجرةٌ، فهو ينام واقفاً، يفهم لغة الشجر رَغْم أنَّ أحداً لم يفهم ألحان صفيره، كان يُصدِّق أنَّ عنايةً إلهيَّة، تجعله يتحرَّك باتِّجاه الشجرة التي ستحميه من الضِّباع ... إنَّه يَنزِف، يعرف أنَّه يَنزِف، ولكنَّه غير متأكِّدٍ أين جرحه! جسده مُخدَّرٌ بالكامل، وهناك نقطة ألمٍ عميقٍ غير واضحةٍ بالنسبة إليه.

تلك الشجرة التي أمامه لم تكن صدفةً!

يُمرِّغ وجهه في التراب، ليستشعر جذورها، علَّها تُخبره بما يريد، قال لها في سرِّه إنَّه يحتاج الوصول إليها، ولم يسمع جواباً. الاختلاف بين الشجرات الثلاث كان يتَّضح في رأسه شيئاً فشيئاً، ويظنُّ أنَّه يهذي بين إغماءٍ وآخرَ، ولكنَّ الشجرات كانت تدور حوله، شجرة السَّنْدِيَان التي تقع خلف بيتهم كانت الأصغر حجماً، كانت في عُمُر صغيرٍ، وتقول عنها الحْمَيْرُوْنَة إنَّها ما تزال طفلةً، فلم تبلغ الستِّين بعد، تنمو الأشجار ببطءٍ، ولذلك فهي تعيش طويلاً، ولأنَّها تعيش طويلاً، تصبح حكيمةً، لديها الوقت الكافي، لتختبر الحياة، ليست مثل البشر، ما إن يدركوا الحياة حتَّى يغادروها، تُخبره بقصصٍ كثيرةٍ، وتتحدَّث همساً، وتُرفِق حديثها بجملة البشر الفانين، وكان يستغرب كيف لمثلها أن تأتيَ بمفرداتٍ كهذه؟! يا للبشر الفانين! تقولها بالفصحى، ثمَّ تضيف: "شُوفْ هالفِرْع، وَااعَيْنِي ... شُوفُو كِيفْ طَالِعْ للسَّمَا، بْعِيْدْ عنَّا، نِحْنَا البَشَرْ الفَانِيْن"، وتُحدِّق وهي تُغمِض جفنَيْها بوَهْنٍ، بينما يلمع خطٌّ الضوء المائل فوق جبهتها، نافذاً من الغصن الفرعيِّ الصغير الخارج عن سياق تشكيل الشجرة، والممتدّ وحيداً مثل يدٍ صغيرةٍ خارجةٍ من عنق رَحِمٍ! وبينما يلمع الضوء فوق تجاعيد جبهتها، يحدِّق عليٌّ في ذلك النِّثَار الغريب الذي تلألأ مثل ذرَّات غبارٍ ذهبيَّةٍ بين أوراق الغصن الوحيد، وبين اللون الأزرق للسماء، ثمَّ يَطرُق ثانيةً مُحدِّقاً إلى الشجرة، وكيف تركت ذلك الغصن ينشقُّ عن كرويَّتها واستطالتها المتناسقة، فتهمس الحْمَيْرُوْنَة: "هَادْ بْيِشِبْهَكْ، يا عليّ".

عليٌّ يحفظ مكانه، ويعرف أين يجلس خلف بيت الحْمَيْرُوْنَة الذي صنعَتْه بين أغصان الشجرة الأصغر، والتي تبعد عشرة أمتارٍ عن المَقَام وشجرته، وكان لا يُحبِّذ الشجرة الصغيرة، كان يعتقد أنَّ الضوء ينفذ من بين أغصانها أكثر ممَّا يجب، ولا تُعجِبُهُ قدرة الشمس على التغلُّب عليها،

والعيش بين أغصانها، وربَّما لسببٍ أبسط هو أنَّه لم يستطع أن يغفو بين أغصانها يوماً، الحْمَيْرُوْنَة تقول له، لأنَّه غبيٌّ! فالشجرة الصغيرة هي من عُمُرِ أبيه، وهي ليست صغيرةً كما يظنُّ، وأبوه أغبى منه! فهو لا يفهم معنى هذه الشجرات في المكان المقدَّس هذا! ولكنَّها راضيةٌ عنه هو، وليس عن أبيه المخبول كما تردِّد، فقد حصل على أهمِّ ما يمكن للإنسان أن يعرفه، وهو قدرته على التواصل مع الهواء والتراب والشجر، أمَّا الماء، فهو بالنسبة إليها أمرٌ آخر، لا تريد الخوض فيه؛ تردِّد أمامه كلماتها عن الماء، وتسرد له قصَّةً من أيَّام بعيدةٍ، كان الأتراك يسيطرون فيها على الجبال والساحل، عندما نزلت المدينة، لتعرف معنى الماء، ورأت البحر الشاسع، وكيف هربت حين رشَّ بعض الرجال ماء النار على وجوه النساء، وكيف ضربوا رِجَالهنَّ، ومنذ ذلك اليوم لم تعُد تفضِّل ذلك المكان، أمَّا لماذا حصل ذلك؟ فلم تشرح له الأمر، وكان يستمع بفضولٍ ويتساءل كيف يمكن أن يكون هناك شيءٌ ما اسمه ماء النار، والماء والنار لا يجتمعان حسب ما خبِرَ؟ اعتادت إنهاء أحاديثهما بتلك الجملة: "إيهِ، يا عليّ، يا شَجَرِةْ قَلْبِي ... الله لا يَاخْدَكْ بْنَارُه". ويذكر جملتها الآن، ويذكر حديث ماء النار، ويرى النيران التي تلتهم الأشجار خلفه؛ هو متأكِّدٌ من أمرٍ ما وهو أنَّ لِحَاء السَّنْدِيَان يقاوم النار! ويُصدِّق بأن دعوات العجوز كانت حقيقيَّةً، هل احترق الجنود الآخرون؟

كانت تُحدِّثه بلا توقُّفٍ وهي تلعب بأصابعها بحَبَّات المَسْبَحَة الزرقاء التي تضعها حول عنقها، فيهرب من كلماتها وخوفه من النار، ويصعد جِذْع السِّنْدِيَانَة، ويحيط أغصانها بأعضائه، ويلتحم بها، ويغمض عَيْنَيْه، ويتأرجح، وكانت تصرخ به أن ينزل، لأنَّ شجرة المَقَام ليست كالأُخريات، فهي هنا لنعتكفَ تحتها، وليس فوقها، ولَّى زمن العيش فوق الأشجار، هذا

زمنٌ ولَّى: "اِنْزِلْ ... اِنْزِلْ، ومَا تْخَالِفْ النَّامُوسْ والطَّبِيْعَة، الأَشْجَار فُوْقْ، نِحْنَا البَنِي آدْمِيْن تَحِتْ" تصرخ، ولا يُلقي بالاً لها، ولا تتوقَّف عن البَرْطَمَة، وهي تطلب منه احترام رُفَات الأولياء الذين يتسرَّبون من الأرض إلى أغصان الشجر في رحلة صعودهم إلى النور، وكان يتجاهلها، ويغفو مستمعاً إلى تمتمتها، ومنتظِراً عابر سبيلٍ، يقدِّم الطعام لها، فيتقاسمه معها.

متى كفَّ عليٌّ عن مناكدتها بالصعود إلى شجرة المَقَام؟ لم يعُد يذكر ما هي الحدود الفاصلة بين طفولته وشبابه؟ لو قيل له ما يذكر، لقال في هذه اللحظة، شجرة السِّنْدِيَان في المَقَام، شجرة السِّنْدِيَان في البيت، وهذه الشجرة التي يزحف نحوها. هناك فروقٌ عدَّةٌ بينها مثل رقائقَ من الضوء تتقشَّر بأحجامٍ مختلفةٍ تحت أشعَّة الشمس، تختلف بدرجاتٍ واهيةٍ، شجرة المَقَام لا تستطيع الأمطار ولا حتَّى الشمس النفاذ بين أغصانها، وحفيف أوراقها يشبه الارتعاش، ألحان ارتعاش أوراق شجرة بيته كان أقربَ لنُواحٍ مكبوتٍ يعلو ويخفُت تَبْعَاً لحركة الرياح وألعابها بين الأغصان. أغصان شجرة المَقَام كانت أكثر ثباتاً، ولا تُصدِر تلك الصأصأة المخيفة في الليل، هو لم يجرِّب أن ينام بين أغصانها ليلاً، وقد فكَّر أن يفعل هذا، لكنَّه كان ينتظر الوقت المناسب، ليُغافِلَهم، فقد كان يعرف في قرارة نفسه أنَّ هذا الأمر سيُحوِّله إلى مجنونٍ في نظر أهالي القرية، هم يصفونه بالغريب، ولكنَّ أحداً لم يجرؤ أن يصفه بالمجنون. الشجرة هنا مختلفةٌ عن شجرتَي المَقَام والبيت، أصوات حفيف أوراقها متغيِّرةٌ، لا إيقاع ثابتاً لها، ربَّما لم يهتدِ إلى صوتها الخاصِّ بعد. أحياناً تزعق، وأحياناً أخرى ترتعش، أو تتمايل أغصانها السفليَّة، وتُصدِر ذَبْذَبَاتٍ أشبه بالوَشْوَشَة المخنوقة، تلك الأغصان الصغيرة في أسفل الجِذْع، كانت تكبر وهو خبيرٌ بأنَّ هذه بداية

النهاية، ستموت هذه الشجرة، ربَّما تحتاج خمسين عاماً، ولكنَّها ستموت، وقد شمَّ رائحتها عندما وصل والجنود إلى موقعهم، وبقي يدور حولها مثل كلبٍ، وسخر منه الجنود، وعرف أنَّها لا تَملُك تلك الرائحة، ولا ذلك الصوت المعهود له، إنَّ تلك الأغصان تعيش في الظلِّ وفي الأسفل، ولا تعرف اللعب مع الضوء، وهو يراقب الضوء، ويعرف ما تعنيه ألعاب الأوراق والأغصان مع الضوء، على الأقلِّ في عِرْزَالِهِ كان يراقب، ولساعاتٍ، عالَماً سحرياً من ألعاب الألوان. شموسٌ صغيرةٌ وكبيرةٌ ومتوسِّطةٌ تتمايل. تظهر وتختفي، تنطُّ تعلو وتهبط، وتختلف في كلِّ ساعةٍ من حركة الضوء. الشمس والقمر يتناوبان في الأعالي، حيث يتقشَّر الضوء والظلام، وكلٌّ منهما بين أغصان الشجرة، وفي عَيْنَيْه يلوح مثل تفَّاحةٍ، وكان يمدُّ يده عندما تتدفَّق خيوطٌ ناعمةٌ ودقيقةٌ من الألوان البرتقاليَّة والورديَّة، ويُمسكها، فتحمله بمظلَّةٍ طائرةٍ، وتنثر من حولها دوائرَ ناريَّةً. في النهار تبدو هذه الدوائر ذهبيَّةً، وفي الليل تتحوَّل إلى فضِّيَّةٍ، وما بينهما تتفجَّر حركة الألوان، حتَّى يشعر أنَّ جِلْده يتلوَّن معها، الأحمر والأصفر والأخضر وتنويعاتها اللانهائيَّة. هناك خضرةٌ تتفاوت روعتها واختلافها بدرجاتٍ دقيقةٍ حتَّى تشكِّل عشرات الألوان من درجات الأخضر القاتم التي تنتهي بالأسود في مرحلةٍ ما، وفي مرحلةٍ أخرى، تكون زرقاءَ تتشكَّل حوله كدائرةٍ، وذلك الدوران من الضوء سرعان ما يتحوَّل إلى أزرقَ فاتحٍ، ثمَّ يعود أخضرَ، في الليل يتحوَّل إلى لونٍ كحلي وأزرق، ينتهي بالبنفسجيِّ الخالص، وهو يمرِّر أصابعه بين الوريقات المرتعشة، ويداعبها. في الشتاء، وبينما تغطِّي الثلوج الجبال، وتغطِّي معها ابتسامات المزارعين وجلودهم اليابسة، كان لا يُصدِّق ما يسمع عن اللون الأبيض للثلج، لأنَّ الأوراق وهي تنفض عنها الذَّرَّات الثقيلة للثلج، تجعله يرى العالَم شفَّافاً، حيث تختفي الألوان، لقد قرَّر أنَّ الثلج لا لونَ له، وأنَّه يمكن أن نقول عن شيءٍ ما بأنَّه بلا لونٍ مثل

عينَي الحْمَيْرُوْنَة حين ترنو إلى السماء، كان يسمِّي الثلج بالعَمَى، ولم تكن تعجبه عادة الناس بوصف الماء أنْ لا لون له، فالماء له ألوان متعدِّدةٌ ومتبدِّلةٌ، كان يُسمِّي الماء صحن الألوان الذي يتغيَّر تَبْعَاً لِمَا يحتويه!

كانت مُتَعُهُ في الإنصات لأصوات الأوراق واختلاق أسماء لها، متعة شمِّ النباتات البرِّيَّة، والركض في الأحراش، اللعب مع الضوء وتحوُّلاته، القفز بين الصخور! أو الاستيقاظ فجراً في أيَّام الصقيع، لمراقبة دوائر الندى المتجمِّدة حول الثمار، والتي تبدو مثل كُراتٍ بَلُّوْرِيَّةٍ وأسطوانيَّةٍ تُغلِّفها، كان مفتوناً بسحر تلك الاستدارات والتماعات الضوء حين تشرق الشمس، وتضيء الثمار المجمَّدة، ومِنْ حولها يشعُّ اللون الشفَّاف للماء، كان يرى حينها الألوان كلَّها في الالتماع ذاك!

كانت تلك الجبال جنَّةً خضراءَ قبل نصف عقدٍ من الزمن، وربَّما أكثر، وهو لا يذكرها قبلاً، هو يرى ما يراه أمامه، عندما يسمع أنَّ الجبل يتصحَّر، لا يأبه لذلك، فما تراه عيناه مختلفٌ، وهو كافٍ له، الحْمَيْرُوْنَة تقول له بأنَّ هذا أمرٌ طبيعيٌّ، لأنَّه لم يعرف جنَّة الجبال وروعتها، وما يراه الآن هو القليل ممَّا تبقَّى، كان عليه أن يرى تلك الجنَّة المفقودة قبل نحو قرنٍ. كان لا يُصدِّقها أحياناً، ينظر إليها وإلى جسدها الضامر وهي تمرِّر أصابعها التي تحوَّلت إلى عيدانٍ يابسةٍ على جِذْع شجرة المَقَام، هناك حيث قالت له إنَّها امتنعت عن البكاء، لأنَّها خافت من ذاكرة الأشجار، ونهَرَتْه في إحدى المرَّات وهو على وشك البكاء من ألم ساقه عندما سقط من أعلى أغصانها، نهَرَتْه بحزمٍ: "مَا تِبْكِي قِدَّامْ شَجَرَة، شَايِفْ الأورَاقْ تَبَعْهَا كِيْفْ بِتْهِزّ؟ مَا تِبْكِي قِدَّامْ شَجَرَة ... اِسْمَعْ هَالصُّوْتْ، هَادْ مُو صُوْتْ وَرَق الشَّجَرْ، هَادْ صُوْتْ الوَجَعْ".

كان واثقاً الآن، وفي أثناء استعادته لكلماتها أنَّه لن يبكي، وصمَّم أنَّه إذا وصل إلى الشجرة، فسيُخبرها بما يحصُل معه، كانت الحْمَيْرُوْنَة تقول إنَّ الأشجار عندما تحمي رفيقاتها لا تعي ما تفعل، فهي تفعل ذلك بحُكْم طبيعة وجودها، ولا يدَ لها فيه، فهي مثل البشر، يقتلون بعضهم، بحُكْم طبيعة وجودهم، ولم تُنْكِر أنَّ الشجر يقتل نفسه بنفسه عندما يكون وحيداً، وأغصانه الصغيرة التي تنبت من الأسفل تقتله، لكنَّه يذكر، أيضاً، أنَّ لتلك الشجرات جذوعاً ضخمةً متينةً أقوى من الصخر! وقد قضى ساعاتٍ يمرِّر أصابعه على لِحائها، وعندما جاء إلى خطِّ الجبهة، واكتشف الشجرة، كان يلتفُّ بجسده ليلاً حول جِذْعها، رَغْم أنَّ سواتر الرمل كانت تُعيقه، فَخَالَفَ التعليمات، وابتعد عن السواتر، والتفَّ حول جِذْع الشجرة، وكان إذا ما اشتدَّ إطلاق النار من الطرف المقابل، اختبأ خلف جِذْعها بعيداً، وهزأ به الجنود، بأنَّ صَدْر صاحبته الشجرة تَمزَّق من الرصاص، وكان لا يُلقي بالاً لهم! فهو يعرف في قرارة نفسه أنَّ الشجرة لا تموت، وأنَّها تحميه. كان متأكِّداً، فقط، من هذا قبل القذيفة الخطأ. الآن هو قَلِقٌ، فالأشجار التي تُعْلِمُ رفيقاتها بالخطر قد احترقت، وبقيت السِّنْدِيَانَة وحيدةً، ولن تستشعر الخطر، وربَّما لهذا لم تشعر به، نظر إلى الجهة الأخرى من الغابة، احترق الجبل، ولا نهاية للرماد! وعرف أنَّ الصوت الغريب الذي سمعَه عندما استعاد وعيه كان صوت ألمِها، ليس ارتعاش الورق، ولا حفيفه ... يعرف ألم الأشجار، يخْبُرُهُ في البرد والحَرِّ، لقد استطاع فجأةً أن يشمَّ شيئاً ما، فامتلك العزم والقوَّة، ليرفع جِذْعه بضعة سنتيمتراتٍ عن الأرض، فرأى الكائن ذاك، الآخر، ذلك الرأس والجِذْع يقوم بالحركة نفسها، ويرمي بجِذْعه!

الشمس حارقةٌ، وتحجب بوَهْجها الكثير من التفاصيل، وما تزال في منتصف السماء لكنَّه لا يميِّز شكل الكائن المتحرِّك على الجهة المقابلة. في الواقع هو يبالغُ هنا، فهو ليس على الجهة المقابلة، رَغْم أنَّه يقوم بالحركات نفسها. كان على المسافة نفسها من جِذْع الشجرة في الطرف الآخر، حيث لا يبدو بعيداً عن الهاوية. نَفَضَ شَعْره مُغمِضاً عَيْنَيْه، ثمَّ حصل ذلك الأمر عندما فتح عَيْنَيْه، ورأى ذلك الوجه يطير أمامه، ويحجب عنه الشجرة. وجهٌ مثل غَمَامَةٍ، ومثل الغيوم التي رافقتْهُ في صباحاته، إنَّه هو، يرى نفسه مثل مرآةٍ قريبةٍ جدَّاً، إنَّه هو! لم يرَ شمساً حرقت وجنتَيْه، رأى وجهه هو نفسه! وهو يذكر أنَّ هذا وجهه، وهو الوجه الذي كان قد رآه في البئر القديمة قرب المَقَام، والذي رآه في المرآة الصغيرة المعلَّقة في بيته، والتي كانت تعكس الشمس في الجدار دوائر من الفضَّة، وتُريه لون عَيْنَيْه، هذا هو وجهه، يطفو أمامه، ثمَّ يرى جسده كاملاً، يطفو فوقه، ويتعرَّف على نفسه بعَيْنَيْه الخضراوَيْن المائلتَيْن إلى الزرقة، بأضلاعه النحيلة التي تشبه أغصاناً يابسة، هو نفسه بشَعْره المجعَّد العسليِّ، يرى شَعْره الآن يلمع تحت الشمس مثل مَغْليِّ زهر البابونج، الذي كانت أُمُّه تستخدمه لتهدئَة بطونهم الُمقَرْقِرَة بالمغص شتاءً، وكان ينظر إليه، ويتذكَّر أنَّه حليق الرأس الآن، هو ينظر إليه، عليٌّ ذو الرأس الحليق ينظر إلى عليٍّ ذي الشَّعْر العسليِّ المجعَّد الكثيف! لا يقول شيئاً، يحدِّق في عَيْنَيْه، ولا يرى أثراً لشيءٍ سوى التماعاتٍ خضراءَ وزرقاءَ مثل نِثَار زجاج، ينظر إلى نفسه، ويتمنَّى ألَّا يصعد إلى السماء، فقد بات على وشك اليقين أنَّ ما يراه هو روحه التي تصعد! لكن مخيِّلته العاديَّة، كما كان يعتقد لم تسمح له بالتحرُّك حتَّى إنَّ رموشه رفرفت مثل جناحَي طائرٍ، لِلَحظةٍ ما شعر بأنَّ لا شيء يستحقُّ الخوف! فهو لا يشعر بأيِّ شيءٍ، هو فارغٌ مثلما كان قبل أن يُولَد! وهو نفسه يعرف أنَّه لم يفكِّر يوماً بأنَّ عليه الانجراف وراء أيِّ شيءٍ،

لم يكن بحاجةٍ ليعرف ماهيَّة الأشياء مِن حوله، كان له تلك العلاقة مع وجوده، والتي يسمِّيها البشر غريزةً حيوانيَّةً، وهو نفسه لم يكن بحاجةٍ للشروح كلِّها مِنْ حوله، كان يستطيع أن يرى الطيور وهي تعلو قمَّة غصنٍ، وتتأرجح، ثمَّ تطير عالياً، وتُعاوِد الهبوط فوق كفِّه، وكان هذا بالنسبة إليه وهو يواجه الشمس، ويجلس بين ذيول الغيوم المارَّة باعتياديَّةٍ فوق خَدَّيْه، كان ذلك العالَم بالنسبة إليه أرقَّ من قشرة بصلةٍ، وأشدَّ قسوةً من جِذْع سِنْدِيَانَة المَقَام. شيءٌ لا يعرف أن يقول عنه كلمةً مثل جوهر الحياة، هو يعرف، فقط، كيف ينظر إلى ما حوله بتلك الهشاشة الكثيفة والقوَّة الجبَّارة للاحتمال، لذلك لم يُغمِض عَيْنَيْه، فقد أراد أن يرى الموت، ولمح أضلاع صدره العائم فوقه، لقد نَحَلَ كثيراً في الأشهر الأخيرة، كان ورفاقه لا يأكلون جيِّداً، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، كما أخبرهم الضابط المسؤول، فهم لا يحصُلون على كمِّيَّات طعامٍ كافيةٍ. قدَّر أنَّه محظوظٌ، لأنَّه سيرى كلَّ شيءٍ بأُمِّ عَيْنَيْه، إذنْ، هكذا! هكذا يكون الموت، ليس سيِّئاً على أيَّة حالٍ، لقد تخيَّله على نحوٍ آخر، ثمَّ تبخَّر وجهه من أمام عَيْنَيْه، ورأى قرص الشمس واضحاً، وشعر بصداعٍ حادٍّ، ولم ينتبه وهو يرفع ذراعه، ويحمي عَيْنَيْه بيده، حاجباً نور الشمس الحارَّ، أنَّه شعر بلحظة استرخاءٍ، فقد عرف أنَّه يستطيع تحريك يده اليسرى بسهولةٍ، وحرَّك أصابعه، وقرَّبها من حَدَقَتَي عَيْنَيْه، وباعد فيما بينها، وتسلَّل نورٌ خفيف إليه، ورأى أطراف أصابعه، كانت كاملةً! مُدَمَّاةً، لكنَّها كاملةٌ! فتنفَّس بعمقٍ، وأدار وجهه للشجرة، ثمَّ وضع أصابعه على خدِّه مُلامِساً غزارةً كثيفةً من الدماء، تحرق جِلْده، غزارةٌ أَلهبتْها الشمس، وقد وجد تلك البرودة مُنعِشةً، برودة أصابعه التي ضغطت على خَدِّه، حينها فقط انتبه أنَّ ألماً حارقاً يرافق سيلان الدم من أُذُنه اليسرى، وأطفأت برودة أصابعه تلك الحُرْقَة الغامضة التي نَبَتَتْ من مكانٍ عميقٍ ... عميقٍ جدَّاً في أسفل رقبتِه.

يرفع أصابعه، ويثنيها، ثمَّ يَقبِض بكفِّه على التراب، ويشدُّ جِذْعه. يَخطُر له أنَّ الكائن يتحرَّك، فيدير وجهه، ولا يرى أثراً له. يرفع رأسه، فلا يراه، يحاول تذكُّر وجوه رفاقه، أيكون هو أحدهم، ولا يستطيع التحدُّث أو الكلام؟ عاد ورفع رأسه، ولم يرَ الكائن، فانقبض! إذنْ، هذا ليس خياله؟ لا بدَّ أنَّ الآخر يرتدي ثياباً عسكريَّةً مثله، لِمَ ظنَّ أنَّه يرتدي بدلةً عسكريةً؟! يُعاوِده شكٌّ أنَّه يرى نفسه، ويعتقد أنَّ الشمس تمنعه من الرؤية، ولكنْ، ربَّما هي الشمس التي تجعله يتخيَّل الكائن الذي يتقدَّم نحوه؟ سيقتله بالتأكيد!

يتنفَّس بصعوبةٍ، وتنزلق حبَّات عَرَقٍ ساخنةٍ من جبهته، ويشعر بها تدخل أُذُنه، ثمَّ يرتجُّ سائلٌ داخل رأسه، وتتشكَّل ألوانٌ من حوله مثل أكياسٍ من البلاستيك تَخنُقُه، ولا يختَنِق. يَشهَق ويَزفِر! يريد العودة إلى عِرْزَالِهِ. يريد هذا فقط، لكنَّ ما يجب عليه القيام به الآن هو أن ينهض أكثر، ويرى بوضوحٍ، والشمس لا تسمح له بالرؤية جيِّداً، يجب أن تغيب! لكنْ، إن غابت، سيكون في مأزقٍ، سوف يأتي أحدٌ ما لإنقاذه، لن يتركوه وحده في عَرَاء الجبال، لتأكله الضِّباع! ستشمُّ وحوش الغابة رائحة دمه، وسوف تأكله حَيَّاً أو ميتاً، يعرف تلك الضِّبَاع! كان يراها، ويعرف لون عَيْنَيْها ليلاً، رآها تأكل الجِيَف! جِيَف حيوانات، لا جِيَف إنسان، ولكنَّها قد تأتي! ثمَّ إنَّ طيوراً سوداءَ تُحلِّق في الأفق، ربَّما تكون طيوراً جارحةً، وهو غير قادرٍ على رؤيتها بشكلٍ واضحٍ، وهذا يعني أنَّ جثثاً تنتشر من حوله، ولا يعرف أين طارت جثث رفاقه مع القذيفة؟ يجب أن ينهض! يجب أن يتقدَّم، ويَنكُش الأوراق من تحته، ويُنظِّف ما حوله بأصابعه وأسنانه.

يرفع رأسه للأعلى، يَشهَق وينهض بجِذْعه، ويرى للمرَّة الأولى جسده كاملاً، نصفه مغمورٌ بالتراب والأوراق، أمَّا نصفه الثاني، فقد كان واضحاً وسليماً، أو هكذا اعتقد، لا يوجد جروحٌ في صدره، ألن يموت؟ الإصابة في مكانٍ ما غير معلومٍ، ربَّما تتوضَّع في أُذُنه وأسفل قَدَمه، وهو غير واثقٍ من هذا الأمر. الألم غير واضحٍ، كيف يكون الألم غير واضحٍ؟ لا يعرف أنَّه مُخدَّر بالألم في كامل جسده، ويشمُّ رائحة دمه، وهذا يعني أنَّه نَزَفَ بغزارةٍ، سيَخذُلُه جسدُه، فهو نحيلٌ وضعيفٌ، ولا يأكل حتَّى عندما تقرُصه معدته من الجوع، لم يحصُل على طعامٍ كافٍ منذ قدومه إلى قمَّة الجبل هذه، وهو لم يتأفَّف كما فعل رفاقه، كان لا يستطيع الأكل، وتنتابه أوجاعٌ في المعدة، وألم معدته هذا يعرفه، بدأ معه من ذاك النهار حين رأى عِجْلًا يركض بنصف رأسٍ! قَرْصٌ حارقٌ في المعدة يشبه ألمه الآن، كلُّ موضع ألمٍ في جسده يُعرِّفه بنفسه، وظنَّ أنَّ توازيَ معرفته بألمه وذكرياته هو طريقةٌ ما للموت ببطءٍ!

نعم، لقد رأى عِجْلًا يركُضُ بنصف رأسٍ!

كان رجال القرية والشيوخ قد اجتمعوا لِذَبْح العِجْل الذي نذره (أبو الزين) بعد أن بدأت الحرب، كانوا يعرفون في قرارة أنفسهم ويردِّدون هذا فيما بينهم، أنَّه رجلٌ فاسدٌ، ومع بداية الحرب، خافوا ونسوا والتفُّوا حوله، كانوا قلَّةً، أغلبهم من الفقراء، ولم تَفتح المَقْبَرَة بعد فمها لتبتلع أجساد أبنائهم، قال لهم إنَّه سيُقدِّم النُّذُور من أجل أرواح أبنائهم، كانوا يعرفون أنَّ أبناءه وأحفاده قد غادروا البلد، ولم يبقَ معه سوى (الزين)، فصمتوا بلا حولٍ ولا قوَّةٍ.

الهواجس التي حيَّرت عليَّاً كانت: هل أخطأتْ يد الشيخ؟ لِمَ لمْ يشدُّوا الحبال بقوَّةٍ، وهم يربطونه؟ ثمَّ مِن أين أتت قوَّة العِجْل تلك، وهو يموت؟ أسئلةٌ أرَّقتْهُ، وبقيت حبيسة نفسه. رآهم يُتَمْتِمُون بآياتٍ قرآنيَّةٍ على السكِّين، سُمِح له بالوجود معهم، فقد كان رجلاً حينها! النساء كالعادة مُنِعْنَ، كنَّ يُحضِّرْنَ عُدَّةَ الطبخ خلف المَقام، دائماً ما رآهنَّ في الخلف، في الموت والحياة، ولمْ يفكِّر لِمَ يحصُل هذا كلُّه، اعتقد أنَّ هذا جزءٌ من طبيعة الحياة وأدوارها، كتعاقُب الشمس والقمر، كان يقف بينهم مُحاوِلاً الاقتراب من شيخ القرية العجوز، بينما يقوم بذبح العِجْل، مراقِباً أدقَّ تفاصيل عمله. لمعان السكِّين، عينَي الحيوان، رقبته، أصابع الشيخ، ثمَّ الدماء، وتلك الضربة الخاطفة للسكِّين، انتفض العِجْل بين يَدَي الشيخ، انفلتت الحبال التي تربط رِجْلَيْه وقَدَمَيْه، ورَكَى الرجال دائراً حول نفسه، فابتعد عليٌّ عنه، ورأى رأسه مُعلَّقاً بطبقةٍ من الجِلْد، كان يكفي جرح بسيط في الرقبة، لينزِفَ دمه، ويموت بهدوء، ألم تكن السكِّين هي السبب؟ كانت مشحوذة أكثر ممَّا ينبغي؟ لن ينسى عليٌّ تلك اللحظة عندما ركض العِجْل باتِّجاهه، ووقع فوقه فجأةً، وحرقَتْه حرارة دماءه وجسده الساخن!

يذكر عليٌّ أحلاماً عن عِجْلٍ بلا رأسٍ، يمشي فوق الغيوم، ويصرخ به، يذكر ثِقَلاً كاد أن يقتله، كان العجل يلفظ آخر أنفاسه فوق صدر عليٍّ! يرى رأسه المُعلَّق، ويشمُّ رائحة الدم فوق ثيابه التي أحرقها مساءً، ورماها في السفح، كانوا قد حضَّروا دَسْتَاً أسودَ كبيراً، يكفي لإطعام عائلاتٍ كثيرةٍ، إنَّه يشمُّ رائحة البرغل واللحم! يشمُّ رائحة الحطب، ويذكر أصابع الشيخ، وهي تُدوِّن أسماء العائلات الفقيرة التي ستُوزَّع عليها الحصص، كان ذلك قبل جنازة أخيه. نعم! يذكر تلك الجمل الرنَّانة لـ (الزين) الذي قال لهم

بأنَّهم يحاربون أعداء الوطن وخَوَنَتَهُ، يذكر أشياءَ تمرُّ بسرعةٍ وهو يضغط بأصابعه على بطنه الآن، يذكر خوف الأهالي من حوله، والسماء التي أطبقت على صدره وهو يسمع أخبار مؤامرةٍ، دبَّرها أولئك الذين يقاسمونهم الأرض والهواء والبحر، ويقولون عنهم أعداء، ولم يفهم حينها لِمَ هم خائفون إلى هذه الدرجة؟! وكان بعض شباب القرية يقولون عنه عندما يسألهم لِمَ هم مذعورون؟! بأنَّه مخبولٌ، وكان الخوف ذاك يجعلهم لا يتوقَّفون عن ذَبْح النُّذُور، ولم يتوقَّفوا عن الدعاء لله والرئيس وأبنائهم الجنود الذين يحمون الوطن، وهو كان هناك يراقب ما يحصُل، وكأنَّه يرى كوكباً سقط من السماء، ولم يكن كحاله الآن، على الأقلِّ، يذكر ألم معدته الذي بدأ منذ تلك الحادثة. كان الشيخ قد سقط أرضاً، والسكِّين التي لم تكن رؤوفةً بما يكفي، كانت في يده! ثمَّ اجتمعت عائلاتٌ بأكملها، ليأخذوا حصَّتهم من اللحم، لم يكونوا كلّهم هناك، فَعَليٌّ يذكر أنَّ عدَّة رجالٍ غادروا القرية، لأنَّهم كما قال عنهم (الزين) خَوَنَةٌ، ولأنَّهم يكرهون الرئيس، ومَنْ يكره الرئيس يكره الوطن. طردوهم، واختفوا في بلادٍ بعيدةٍ، وقيل إنَّ آخرين منهم قد اختفوا في السجون، ولكنَّ هذا ليس مهمَّاً، لأنَّ أهل القرية يعرفون أنَّهم لم يتجاوزوا ثلاث عائلات، وقد قضى اثنان من أفرادها عُمُرهما في السجون، الأوَّل في عهد الرئيس الأب الذي مات، والثاني لا يزال يقضي عُمُره في سجون الابن الذي يريد أن يعيش للأبد، ثمَّ صاروا يردِّدون أنَّهم تحالفوا مع الخَوَنَة الذين يريدون قتلهم، لذلك لا بأس بأن يختفوا، حتَّى لو كان أحدهم مُعلِّمَ أولاد القرية كلِّها، وحتَّى لو كان ابنه طبيب القرية، فالولاء للوطن كان أهمَّ من المراتب العلميَّة كلِّها، وحتَّى أهمَّ من أولادهم الذين سيموتون تِبَاعَاً، كان الزمن حينها غريباً، والموت في بدايته يخيِّم على بيوتهم، ثمَّ سيأتي لاحقاً الزمن الذي يتوقَّفون فيه عن

القول: نموت فداءً للرئيس والوطن. فقد فَقَدُوا الأرض والأولاد والحياة، ومَنْ تبقَّى منهم لم يعد يَملُك ثمن خُبزه.

وسمع هناك أوَّل صرخةٍ؛ صرخة امرأةٍ، وتلاها أوَّل قبرٍ في تلك الحرب التي عاشت في رأسه، وصارت تدور مثل مفتاح صَدِئٍ. صرخةٌ كَحَدِّ سكِّينٍ! وعرف الجمع أنَّ أوَّل شهيدٍ دخلَ قريتهم.

يذكر أنَّ معدته قَرَصَتْهُ، وهي الآن تَقرُصُه، رَغْم أنَّه لم يرَ عِجْلًا بنصف رأس يمشي أمامه، ولم يسمع وَلْوَلَة المرأة، لكنَّه شمَّ من جديدٍ رائحة الشِّوَاء، ونهض بجِذْعه، ورفع رأسه، فرفع الآخر رأسه، وأمسك عليٌّ كُمَّه بأسنانه، ومزَّقها، ولم يستطع نزع ملابسه عنه، وسمع اصطكاك أسنانه، ثمَّ هبَّتْ نسمةٌ، وعاد صوت حفيف الشجرة! إنَّها قريبةٌ، ولكنْ، ليست تلك الشجرة مَنْ يسمع حفيفها، ربَّما هي أوراق الغابة في أسفل المنحدر، وهي بعيدةٌ حتَّى يفكِّر أنَّه يسمعها، ويرى أوراق السَّنْدِيَان نفسها بتعاريجها تدور حوله، ويروق له دورانها، ويعرف أنَّها وَهْمٌ، وهو يراها حقيقةً، وقد خفَّفت القليل من حَرِّ الشمس، ولأنَّها فعلت ذلك، فقد ظنَّ أنَّ ما يحصُل معه حقيقيٌّ، وأنَّه استطاع أن يتقدَّم، وقد كافأتْهُ الشجرة بذلك الظلِّ الخفيف لدوران أوراق السَّنْدِيَان حول رأسه.

لو أنَّ الشجرة تمشي إليه، لكنَّ الشجر ثابتٌ، والبشر مَنْ عليهم أن يمشوا، ليصلوا إليها، وهو لا يستطيع المشي، ولن يذكره أحدٌ بعد الآن، ولن تصل إليه أيَّة نجدةٍ، وحينها تذكَّر رفيقه الذي كان إلى جانبه لحظة الانفجار، ولمحَهُ يطير إلى الجهة المقابلة، وربَّما هو مَنْ يراه، ولكنْ، أين بندقيَّته؟! لو كانت معه لاطمأنَّ! ثمَّ رآها تطير في الهواء، وهي ليست على مقربةٍ منه،

نعم، لقد طارت، هي أيضاً، وتلاشت. حتَّى إنَّه لم ير غصناً على الأرض، كي يحمله، ويدافع به عن نفسه، ولا يستطيع حتَّى هشَّ الحشرات التي تتجمَّع مِنْ حوله، وكان يلمح مجموعةً من الذباب، ربَّما ليست ذباباً! لكنَّها حشراتٌ تشكِّل سِرْبَاً فوق كتلةٍ ما، ولم يحاول أن يفكِّر أنَّها جثَّةُ رفيقه المُقطَّعةُ الأشلاء، لكنَّه لمح من بعيدٍ أمامه، ليس بعيداً كثيراً، لمح في الطريق الذي يتقدَّم فيه ببطءٍ، يداً ممدودةً، يداً واحدةً مبتورةً، وسِرْبَاً من الذباب.

كم مضى على وجوده هنا؟

يسمع أزيزاً ما، ينتبه أنَّ هناك حشراتٍ تتجمَّع في أسفل قَدَمَيْه، ربَّما قَدَماه مقطوعتان، ولن يستطيع الصعود إلى الشجرة بلا قَدَمَيْن، ولن يستطيع الركض في الغابة بلا قَدَمَيْن، وإلَّا فما معنى أنَّه لا يستطيع الوقوف، ثمَّ مَدَّ يَدَيْه، ولمس بطنه، حاول انتزاع بدلته العسكريَّة من تحت الحزام القاسي، وكان أضعف من أن يفعل ذلك، فضرب بطنه، أراد أن يَلمِسَ جِلْده، ليتأكّد أنَّ بطنه لم يكن مفتوحاً، فصرخ، وابتعدت الحشرات، الذباب ربَّما! وفكَّر أنَّ الأفاعي قد تمرُّ هنا، وهو لا يخاف الأفاعي، كان يخاف أفاعي السهول، هناك قرب المدينة، حيث عمل مع أبيه، أمَّا أفاعي الجبال، فلا يخافها، لا يوجد ما يخافه في جبل قريتهم، وهذا الجبل رَغْم أنَّه ليس ببعيدٍ عن القرية، إلَّا أنَّه يجهله، ولا يحفظ حيواناته، ولا علاقة له بأشجاره، لو كان في جبلهم، لَمَا خاف حتَّى لو قطعوا جسده. انتابتْهُ قُشَعْرِيْرَةٌ، جعلتْهُ يسمع ضربات قلبه غير مُدرِكٍ أنَّ الذاكرة لعنةٌ، وتذكَّر أنَّ ذلك العِجْل كان أسود اللون مع بقعٍ بيضاءَ عند جبهته، وكان صغيراً وجميلاً، وقد تحوَّل إلى طعامٍ في بطون العائلات، وهو لم يذُقْ لقمةً من

اللحم الذي أعدَّتْهُ أُمُّه مهروساً بالقمح، وكان يرى بين حينٍ وآخرَ، وهو جالسٌ على السطح عِجْلًا طائراً مذبوحاً، ينظر تلك النظرة المتضرِّعة بعينَيْه السوداوَيْن الواسعَتَيْن مندفعاً نحوه، يظهر عند قمَّة الجبل المقابل، ويعبر مسرعاً، ويحطُّ على السطح قربَه، لا يكلِّمه، فيهرب عليٌّ من البيت، يركض عبر القرية إلى السفح المقابل مبتعداً عن بيتهم حتَّى يأتي المساء.

كان عليٌّ هادئاً، حتَّى إنَّ نهلة أطلقت على ابنها لقب الحكيم، كانت تنظر إليه بخوفٍ وخشيةٍ عندما تراه، وهو يهرب من السطح راكضاً بسرعةٍ وعبر الدروب مختفياً بين الأشجار، وعندما تسأله ما الذي حلَّ به؟ كان لا يجيب، فتقول إنَّه وَرِثَ الخَرَسَ عن خالته التي عملت خادمةً عند (أبو الزين)، ويصمت عليٌّ، ويذكر تلك الخالة الجميلة التي لم تتزوَّج، والتي لم يرها يوماً بظَهْرٍ قائمٍ منتصبٍ، كانت تخطر في باله إمَّا منحنيةً، تعمل في المدرَّجات الحجريَّة، أو تُنظِّف البيت مرتميةً على الفراش الإسفنجي في الغرفة ربَّما، أو تحمل الأكياس التي تحني ظَهْرها، ثمَّ اختفت في أحد الأيَّام، ووجدوا جثَّتها أسفل المنحدر، سمع أُمَّه تقول إنَّها رمت بنفسها في المنحدر، فقد صدَّقت أنَّ لها جناحَيْن، وهو صدَّق خالته، لأنَّه يعرف أنَّ ذلك حقيقيٌّ، فقد عاود رؤيتها في أحلامه تطير بجناحَيْن.

لو يطير الآن بجناحَيْه إلى الشجرة!

أليس شبيهاً بخالته؟ كلُّ مَنْ في القرية يقولون إنَّه يشبه خالته الخرساء، يسمُّونها بالخرساء، لأنَّها لا تتكلَّم إلَّا نادراً! هو يعرف أنَّها لم تكن خرساء! لا بدّ أنَّ للخالة أسبابها في الظنِّ أنَّ لديها جناحَيْن يرفرفان، همست بذلك لأُختها قبل يومٍ واحدٍ من اختفائها، وأخبرتْها أنَّ عليهم جميعاً أن يتركوا

هذه القرية الملعونة، وأنَّها لم تعُد تحتمل الخدمة في بيت (أبو الزين)، لِمَ يذكرُ خالته الآن؟ لقد ظنَّ أنَّ هناك جناحَيْن يطيران به إلى الشجرة، ولكنَّ الجناحَيْن لم ينبتا، رَغْم دغدغة ما أشبه بدبيب حشراتٍ أو كائناتٍ ما صغيرةٍ، ترعى شَعْر صدره! الحشرات تأكله!

لن يطير إذن!

بقي في أرضه يتقدَّم ببطءٍ عدَّة سنتيمتراتٍ مع كلِّ حركةٍ، إذا بقي على هذه الحال، فسوف يحلُّ الليل قبل وصوله الشجرة، وسوف تأكله الضِّبَاع حَيَّاً. لن تأكلكَ الضِّباع، أنتَ مَنْ ستأكلها! يقول له صوتٌ، ويعرف أنَّه واهمٌ، وهذا ليس صوت أُمِّه، فيمسك بقبضة ترابٍ، وينهض بجِذْعه، ويتقدَّم سنتيمتراتٍ أخرى، يحرِّك أصابعه، ويُغرِقها في دمه، وينظر إليها، لِمَ هو هنا؟ لِمَ لَمْ يفعل مثلما فعل ابن جيرانهم عندما هرب، لماذا لم يهرب؟ هل هو العار؟ ما الذي يعنيه العار؟ هل كان العار أو الخوف أم ماذا؟ هل فعلاً يستحقُّ الأمر؟ الحْمَيْرُوْنَة طلبت منه أن يترك القرية قبل أن تختفيَ؟ ولِمَ اختفتْ؟ ولم سكتوا عن اختفائها؟ وهو نفسه نسيها؟ إنَّه عاجزٌ عن فَهْم ما حصل!

طنين الأفكار يعذِّبه، ويرنو إلى الأمتار القليلة أمامه، ولا يريد أن يصدِّق أنَّها حياةٌ كاملةٌ بقيت له!

يَعُضُّ بأسنانه على التراب، ويسمع صوتاً قريباً، وينظر إلى الجهة المقابلة، إنَّه الكائن! بدت له أربعَ قوائمَ سوداءَ منتصبةً، تشكِّل عبر أشعَّة الشمس المتوهِّجة خيالاً لحيوانٍ أسطوريٍّ. لا بدَّ أنَّه حيوانٌ، وليس إنساناً، استرخى،

فهذا ليس العدوَّ، ولا يحمل سلاحاً، والضِّباع لا تظهر في الشمس، وهو لم يمتْ حتَّى تتقدَّم منه، وتنهش جثَّته. لكنَّ القوائم الأربعة سرعان ما اختفت، وحلَّت محلَّها خطوطٌ مضيئةٌ، وعرف أنَّها الشمس تخدعه، إنَّه يحدِّق في الكائن، الرأس يرتفع معه! وكان قد زحف مسافةً أطولَ ممَّا توقَّع، لأنَّ عَيْنَيْه تريان الأغصان، لقد صارت قريبةً! فيرفع يَدَيْه، ويظنّ أنَّه سيجري نحوها، فيسقط بقوَّةٍ على الأرض، وقبل أن يغيب في إغمائه، كان قد عاد، ولمح تلك اليد، ونسيَ العِجْل الذي يمشي بنصف رأسٍ، وخلال ثانيةٍ، عرف أنَّ رأسه عندما هوى قد وقع في باطن تلك الكفِّ العريضة، وتلك الثانية التي تشبه الموت لبراعتها وسرعتها وعاديَّتها، جعلتْهُ متأكِّداً أنَّها كانت اليد المبتورة لرفيقه الذي كان معه لحظةَ وقوع القذيفة!مكتبة

ما إنْ شعر بلزوجة اليد التي تَحضُن رأسه حتَّى ارتجفت شفتاه، ودفع بكتفَيْه نحو المنحدر، تُبعده حركته تلك عن الشجرة.

انزلق بنفسه، وصار بأمانٍ بعيداً عن راحة اليد، وفي لحظةٍ تتكرَّر كجريان مياه النهر أسفل الوادي، لحظةً يعي فيها ألماً ما، وتعود به إلى معرفته بنفسه كلّ مرَّة، وكأنَّه يصعد سُلَّماً، ويدخل دروباً، ويفتح نوافذَ صغيرةً، في تلك اللحظة وهو يَعُضُّ لسانه بينما يحاول التنفُّس، يستعيد عضَّة اللسان تلك! يذكرها، نعم! كانت بعد علقة عصا الرمَّان!

حينها كان عليٌّ قد أنهى سنواته الستِّ الأولى في المدرسة، وسيلتحق بالمدرسة الإعداديَّة في القرية المجاورة، كانت قريته نائيةً، وبالكاد تحوي مدرسةً ابتدائيَّةً صغيرةً، وهو وغيره من الأولاد الذين وَجَبَ عليهم السفر يوميَّاً إلى قريةٍ مجاورةٍ، ليس سَفَرَاً، بل رحلةً قصيرةً، لا تتجاوز النصف ساعةٍ في الباص لم ترقْ لعليٍّ، وخنقتْهُ جدران المدرسة العالية، ولم يُسمَح له بالذهاب مشياً كما أراد، كان يكره ركوب الباص الأبيض الصغير، ويشعر بالاختناق وهو ينحشر بين الأولاد، لكنَّ نهلة أجبرتْهُ على ذلك، وعليٌّ الذي ينظر الآن إلى الشجرة، متكوِّرٌ بشكلٍ جانبي بعد أن تخلَّص من اليد المبتورة، كان حينها يستطيع الشعور بقَدَمَيْه، والركض إلى جانب الأولاد، وهو الآن لا يستطيع، وذلك الوقت لم يكن بعيداً عن هذه اللحظة، ربَّما قبل سبع سنواتٍ أو ثمان، لا يذكر! نسيَ عمره حقيقةً، وقد كان ذلك سابقاً لأوانه.

لم يكبح عليٌّ سخطه على الوضع الذي آل إليه حاله محشوراً في الباص بين أولاد لا يتوقَّفون عن الزعيق، امتثل لِمَا أرادتْهُ نهلة، وذهب إلى المدرسة، كان حينها يفكِّر؛ لِمَ عليه أن يفعل كما يفعل باقي الأولاد؟! ومَنْ يقرِّر ما على الأولاد أن يفعلوه؟! إذ كان يكره لغة البشر وطريقتهم في الكلام والكتابة والتعبير، ببساطةٍ لا تُعجبه طريقة علاقتهم مع حيواتهم، وهو لم يجد تفسيراً لذلك، فَمَنْ يقرِّر إن كان هو بحاجة أن ينحشر مع الآخرين في غرفةٍ، يسمُّونها صفَّاً مدرسياً، أو في حيِّزٍ آخرَ، يسمُّونه بيتاً؟! أسئلته بقيت حبيسة رأسه، ونهلة لم تكن تهتمُّ بها، كانت مصمِّمةً أن يُكمِل أولادها تعليمهم، ليحصُلوا على وظائفَ حكوميَّةٍ وزوجاتٍ وأولاد، أبوه لم يكن مبالياً، أو ربَّما هكذا اعتقد، فكَّر أنَّ عدم اهتمام أبيه أمرٌ مفيدٌ، وأنَّه من الجيِّد، بعض الأحيان، أن نمرَّ على ما نعيشه بخفَّةٍ، كان أبوه بهذا المعنى خفيفاً، هكذا اعتقد، وقد أحبَّ لامبالاته أحياناً. وهو، أيضاً، لم يكن يدرك تلك المفردة، الخفَّة التي فكَّر فيها، ولا يزال، كانت تعني له أن يدع الزمن يقرِّر، ويترك نفسه لعناصر الحياة التي أحبَّها، وبقي أسيراً لها، الريح والشجر والسماء والغيوم، قطرات الندى المتجمِّدة، والتي تتدلَّى على شكل ثريَّاتٍ من الأغصان ... اليعاسيب الصغار ... الديدان الزهريَّة والحشائش التي تنبت بين الصخور، ثمَّ ... وثمَّ ... ليس مهمَّاً ذلك كلّه، لأنَّ أحداً لن يفهم ما يريد قوله، وأُمُّه ستُوبِّخه، وأبوه سيجد لغته الوحيدة للتفاهم معه في عصا الرمَّان، وهو، حقيقةً، كان بعيداً عن ذلك الأب الذي يخرج في الصباح، ويعود مساءً، ولم يكن يعرف ما يفعله حتَّى رافقه لاحقاً برحلاته تلك، والتي اتَّضح له أنَّها لم تكن بالرحلات أبداً. المهمُّ في الأمر أنَّه يستعيد الآن ذلك الضرب المؤلم الشبيه بألم لسانه المعضوض المُدمَّى، كانت حبَّات العَرَق تنضح من جسده بلا

توقُّفٍ، والغزارة التي استشعرها من ملوحة العَرَق المتدفِّق الذي يستقرُّ في عَيْنَيْه، جعلتْهُ أكثر ظمأً ممَّا كان عليه عندما استعاد وعيه.

النقطة التي يستطيع التركيز عليها هي أنَّ الألم غير واضحٍ، ربَّما لم ينفتح جسده في ذلك الوقت البعيد كما هو مفتوحٌ الآن، لكنَّه يذكر الضربات التي تلقَّاها مِن حوله، كان ذلك في الأسبوع الأوَّل من المدرسة، وقد تغيَّر عالَمه فجأةً، والمدرسة الجديدة تعجُّ بالغرباء؛ فتيانٌ وفتياتٌ من القرى المجاورة، ومِن سكَّان القرية الكبيرة التي تحوَّلت إلى بلدةٍ، بقي وحيداً بعيداً حتَّى عن أولاد قريته، جلس في مَقْعَده الخلفيِّ كعادته، هادئاً صامتاً وقوراً أكثر ممَّا يجب لولدٍ في مثل عُمُره، كان خائفاً من تلك الجملة، وهو يدعو ألَّا يُكرِّرها مُعلِّمهم، تلك الجملة التي يسمعها دوماً عندما يعاقبون الأولاد في المدرسة. الجملة السحريَّة التي جعلتْهُ لا ينام، ويصاب بالكوابيس، والتي تتحدَّث عن الأرض التي ستنشقُّ، وتبتلع الأولاد، وهو لم يكن ولداً عاقَّاً، كان الضرب الذي يتلقَّاه مِن أبيه كفيلاً بجعله يمشي على الصراط المستقيم، هذا، أيضاً، ليس مهمَّاً، لأنَّه يريد العودة إلى عِرْزَالِهِ، ولو سُمح له أن يترُك هذا العالَم، ويبقى مع شجراته، لعاش سعيداً، كان حُلْمه هو أن يرى أباه يتحوَّل إلى ولدٍ صغيرٍ، ويتبادلان الأدوار. حقيقةً كان هذا التحوُّل بمثابة هاجسٍ، وفكَّر بمعجزةٍ لتحقيق هذا الأمر، واستنطق الحْمَيْرُوْنَة في أحد الأيَّام إن كان الزمن قادراً أن يكون تحت السيطرة، وفي أن يكبر هو، ويصغر أبوه، وأخبرتْهُ الحْمَيْرُوْنَة، بكلِّ جدِّيَّةٍ، أنَّ هذا مستحيلٌ، إلَّا في حال مات والده، ثمَّ وُلدَ من جديدٍ في عائلةٍ أخرى، حينها سيتمكَّن من تحقيق حُلْمه، هذا في حال كانت حياته الجديدة في تقمُّصه على شكل إنسانٍ، وكانت تشكُّ بذلك كما قالت له، فأبوه غير جديرٍ بذلك، ولم يُعجبْهُ هذا الأمر، فقد ظنَّ أنَّ أباه لن يموت أبداً، الآباء لا يموتون! قال

لها حزيناً، ثمَّ صمت عن حُلْمه، ونسيَه، وعندما بلغ الثانية عشرة من عُمُره، وقرَّروا أن يرموه في هذه المدرسة بين الغرباء، فكَّر أنَّ مشكلته كانت مع نهلة التي تضع القوانين! وهؤلاء الغرباء كانوا ممتعضين منه، لأنَّ الولد ذا الأنف المحدَّب والشَّعْر العسليِّ لم يُكلِّمهم، كانوا، بالنسبة إليه، غرباء، ويشعر أنَّ حالهم حاله، وهم يقطعون المسافات، ليُحشَروا معاً في غرفٍ إسمنتيَّةٍ، يُطلِق عليها الكبار اسم مدرسةٍ.

مرَّت الأيَّام الأولى بسلام رَغْم أنَّه وجد الأمر غريباً في أن يحصُل على عدَّة مدرِّسين ومدرِّسات، ولكلِّ مقرَّرٍ مدرسيٍّ مُعلِّمٌ مختلفٌ، وهذا ما أربكه. أخوه الأصغر، وهو من أكثر الطلَّاب اجتهاداً في القرية، سيشرح له أنَّ هذا طبيعيٌّ، لأنَّهم يكبرون، ويجب أن يتقدَّموا في العلم والاختصاص، وطمأنَه بأنَّه سيلتحق به بعد سنةٍ، وسيكونان معاً، ولن يكون وحيداً، الأخ الصغير المجتهد سيرفع رأس عائلته عالياً، ولن يُجبَر على أن يكون مثله، سيُكمِل جامعته، ولن يجرُّوه إلى مثل هذا المكان، حيث ترميهم الطائرات بقذائفَ عن طريق الخطأ. في ذلك الوقت، لن يلتفت إلى ما يقوله أخوه، وسينظر إليه على أنَّه مجرَّد ولدٍ صغيرٍ، كان يريد البقاء في البراري، حتَّى إن نهلة وصفتْهُ بابن البراري وابن الضبعة! قالت له ذلك عندما أعلن بوضوحٍ أنَّه لا يريد العودة إلى المدرسة: "ويْن بَدَّكْ تْعِيْشْ، يا ابْن الضَّبْعَة، إذَا ما قَرِيْتْ وكَمِّيْتْ دِرَاسْتَكْ؟! ... بالبَرَارِي مَعْ الوحُوشْ"، وهزَّ رأسه عدَّة مرَّاتٍ نحو الأسفل. وعندما أخبرتْهُ أنَّه إن فعل ذلك، فسوف يبقى طوال عُمُره أجيراً عند الآخرين، وسوف يرافق أباه للعمل في السهل، هزَّ رأسه بالحركات نفسها، وهو يسمع صراخها، وخرج إلى الغابة، ولم يعد إلَّا مساءً، حيث قضى نهاره عارياً قرب النهر أسفل الوادي، كان يحبُّ الاستحمام فيه رَغْم شُحِّ مياهه في السنوات الأخيرة.

هل يوجد نهر هنا؟ ربَّما لم يتسنَّ له الوقت، ليكتشف المكان جيِّداً، كان ورفاقه الجنود يعبرون الغابة من أسفل الوادي للوصول إلى القمَّة باحثين عن الضوء بين الأشجار، ولم يشمّ رائحة نهرٍ ما! لقد تحرَّكوا ليلاً حسب أوامر الضابط المسؤول، وهم على خطِّ جبهةٍ في جبال اللاذقيَّة، حيث سيطرت كتائبُ عسكريَّةٌ مُعارِضةٌ للنظام على بعض القرى، لا يعرف عن تلك الكتائب شيئاً سوى ما رآه في تلك الفيديوهات التي كان يتبادلها أهل القرية فيما بينهم عن رجالٍ بِلِحَىً طويلةٍ، وثيابٍ غريبةٍ طويلةٍ، يحملون أسلحتهم، ويتوعَّدونهم فيها بالذَّبْح والقَتْل، ورَغْم خوف رفاقه، فقد كان ينتقل بخفَّةٍ مُنفِّذاً الأوامر، ومفتوناً بعبور الغابة وصعود الجبل والنزول إلى الوادي، وكان حينها يمتلك قَدَمَيْن، ويتمنَّى لو يستطيع التأكُّد الآن أنَّه يَملُك قَدَمَيْن، أن ينظر إليهما ... ينظر فقط، لو يستقيم ظَهْره! لكنَّ ظَهْره لا يتحرَّك.

عندما كان في أسبوعه الثاني في المدرسة لا يزال يشعر بقَدَمَيْه، ويغادر عالَم الطفولة، ويجلس في الصفِّ منزوياً في المَقْعَد الأخير ساهماً عمَّا يقوله الأستاذ، شعر بلطمةٍ على رقبته، واستفاق من شروده، ورأى فم الأستاذ يُبَلْضِم بأشياءَ، وكان الأولاد من حوله واجمين، وتوقَّع أن يضحكوا عليه، ويسخروا، لكنَّهم لم يفعلوا، فقد كان وجه الأستاذ محمرَّاً، ثمَّ، فجأةً، سمع تلك الجملة. الجملة التي يسمعها منذ زمنٍ، واستطاع تمييزها من بين جمل الأستاذ الغاضبة، كان قد امتلك زَغَبَاً في لحيته، وشواربه بدأت ترسم طريقها وشكلها بشُعيراتٍ لامعةٍ وذهبيَّةٍ، ويسافر من قريةٍ إلى أخرى وحيداً وقادراً على فعل ما يريد، فقد نما شَعْرٌ أسفل بطنه، وتطاول كلُّ ما في جسده، ليس فقط أنفه المحدَّب الطويل، وصوته صار جَهْوَرِيَّاً، ويريد أن يقتل الوحوش التي تشقُّ الأرض، وتبتلعه منذ أن وعى دنياه. لم

يستطع أن يصرخ بعد إحساسه بألم الضربة، فخرج منه ذلك الصفير، لم يُتأتَّئ حتَّى ليجيبَ عن سؤال الأستاذ بأن يقرأ النصَّ، فأمسك المُعلِّم بالكتاب، وضربه به على ظَهْره، وقال جملته تلك للمرَّة الثانية: "بْتِقْرَا ولا بْضَلْ بِضِرْبَكْ لَبِطْلَعْ شِيْ مِنْ الأَرْضْ، وبِبْلَعَكْ"، حينها، وحسب رواية الأولاد الآخرين، أمسك عليٌّ بالكتاب، ورماه في وجه الأستاذ، وقفز فوق المقاعد، ثمَّ أمسك بمَقْعَده الخشبيِّ، وقَلَبَهُ، وكسر زجاج النافذة، وتفرَّق الأولاد فَزِعِيْن، ورمى بالكرسي والطاولة في وجه المُعلِّم، ولم يستطع المُعلِّم والأولاد إيقافه عندما اجتمعوا عليه، وكان يَرفُسُ ويَلْبِطُ مُغمِضاً عَيْنَيْه، ولو استطاع أن يصل رقبة الأستاذ، لعضَّها بأسنانه، لكنَّ الأستاذ أمسكه من رقبته، وانهال الأولاد عليه ضرباً. كان الضرب يأتيه من الجهات كلِّها، ولمحَ نجوماً تتهاوى، وكفَّ الأستاذ وقبضتَهُ وهو يَلْكُمُه ويَشْتُمُهُ، ولولا دخول مدير المدرسة لتخليصه، لكسروا عظامه. يذكر عليٌّ سؤالاً، لم يفارقْ رأسه لسنواتٍ، لِمَ انهال عليه الأستاذ ضرباً مع الأولاد الآخرين؟ كيف اجتمعوا معاً بهذه السرعة؟ كان أستاذه من إحدى القرى المجاورة، وكان عضواً ناشطاً في الحزب الحاكم، هذا الأستاذ الذي سيتحوَّل في سنوات الحرب اللاحقة إلى ناشطٍ من الطراز الأوَّل في التعاون مع شبكةٍ من الميليشيات وبين أعضاء الحزب، ولن يعرف أحدٌ ما الذي كان يقوم به تحديداً، وعليٌّ نفسه لن يُعاوِد رؤيته مرَّة أخرى، لكنَّ شُهرته ستطبق الآفاق، ولن يخشاه الأولاد فقط، بل ناسٌ كُثرٌ يعرفونه ويُردِّدون اسمه، كانوا يقولون إنَّه كان صلة الوسط بين سلطاتٍ عليا تُخطِّط وسلطات دُنيا تُنفِّذ، آخرون يقولون عنه رجل مخابرات! ولن يعرف أحدٌ صحَّة هذه الشائعات، لأنَّ الأستاذ الذي بقي يضرب عليّاً حتَّى خلَّصه مدير المدرسة، سوف ينسى الإهانة التي وجَّهها له عليٌّ، وكسر بها هيبته أمام الطلَّاب، كما سينسى عليٌّ ما قاله له: "والله، لَرَبِّي فِيْكْ هَالجْبَالْ كِلّها، يَا عَرْصْ، يَا إِمَّعَة ... وْلَااكْ، أَنَا الدَّوْلِة

هُوْن"، ولاحقاً لن يعرف عليٌّ أيَّ شكلٍ للدولة التي لا يراها ويتحدَّث كُثرٌ باسمها! لكن هذا لا يعني أنَّه لم يبتسم بين حينٍ وآخر راضياً عن نفسه، عندما يتذكَّر حادثة المدرسة تلك، وكيف لَطَمَ وجه الأستاذ الذي يريد أن يُخرِجَ الوحوش من الأرض، لتبتلع الأولاد.

إثر تلك الحادثة ترك عليٌّ المدرسة، وكان سعيداً، لأنَّه صارع الوحوش التي تخرج من الأرض، وتبتلع الأولاد، يذكر الآن أنَّه بقي في فراشه لأيَّامٍ لا يعرف مصدر ألمه، فقد انتهت الأيَّام السوداء التي كان يضطرُّ فيها لسماع تلك الجملة، كان راضياً، لأنَّهم في بيتهم لا يردِّدونها، واقتنع أنَّ مُعلِّمي المدرسة يشبهون ضِبَاع الأحراش، وكان يكرههم كرهاً غير مفهومٍ بالنسبة إلى أهله، وعندما تجرَّأ مرَّة، وأخبر نهلة أنَّ مُعلِّمي المدارس هم جواسيس الوحوش التي تسكن باطن الأرض، وتبتلع الأولاد، ضحكت، ولم تُعرْ جملته تلك أيَّ اهتمامٍ، وظنَّت أنَّ الأمر سيمضي كما تمضي الحياة من حولها، وكأنَّها لم تكن، فهي تنسى، ومَنْ حولها ينسون، وعليٌّ نفسه نسيَ بعد أشهرٍ تلك العلقة، لقد استعاد نفسه كما اعتقد، ولن يكون مُجبَراً على البقاء في ذلك المكان المسمَّى مدرسةً، ولن يختلط بالأولاد الغرباء الذين ضربوه، وسوف تنسى نهلة وأخوته وأبوه، فابنهم الأصغر المجتهد الذي سينسيهم عقوق ابنهم الأوسط كان كفيلاً بجعلهم يلتمسون حُلْماً ما، فهم يحلمون أخيراً بولدٍ مُتعلِّمٍ، سيذهب إلى الجامعة، وسوف ينسى عليٌّ أنَّ أباه ربطه بجِذْع شجرة السِّنْدِيَان، وضربَه بعصا الرمَّان، وبقي هناك مربوطاً حتَّى نهاية الليل، يتلقَّى عقابه، كان أبوه في كلِّ ساعة يأتيه، ويسأله إن كان سيعتذر للمُعلِّم، ويعود إلى دراسته، وكان عليٌّ المقيَّد بالحبال من خصره، يردُّ بصفيره، ويرفع رأسه إلى الأعلى متجاهِلاً وجه أبيه، ولا ينفكُّ عن إعادة حركة رأسه، وهو يحدِّق بأغصان الشجرة، فيضربه الأب من جديدٍ، ويتابع

صفيره في أثناء الضرب، عيناه على الأغصان العالية وتشكيلات الضوء، منشغِلاً بألعابه مع الأوراق. في نهاية المساء، سوف تفكُّ نهلة الحبالَ، وتُداوي الجراح التي خلَّفتْها عصا أبيه وضربات المُعلِّم والأولاد، بينما هو يُصفِّر ويُصفِّر بلا توقُّفٍ.

الآن لا يستطيع الصفير! تتيبَّس عضلات شَفَتَيْه، وكأنَّها رُبطت بحبالٍ ثخينةٍ، وإن كان له أن يتقدَّم، ويستعيد مكانه قبل أن ينزلق خوفاً من اليد المبتورة، فما عليه، إلَّا أن يطلب معجزةً ما، عليه أن ينهض، أن يرفع رأسه بقوَّةٍ أكبر من قبل، فالشمس اختفت من وسط السماء، وهو العارف بحركة الزمن من ألوان الضياء، أدرك أنَّ الوقت ينفد منه، فدفع بصدره ورأسه، واستطاع أن يستعيد رؤيته للمكان مِنْ حوله، ثمَّ رأى ذلك الشيء الذي يسمِّيه قَدَمَيْه، كانت مجرَّد ثوانٍ، ثمَّ هوى رأسه. إذنْ، فهو يَملُك قَدَمَيْن، لم تُقطَع قَدَمَاه، ماذا لو أنَّهما مفتَّتان تحت كومة الأوراق؟! ثمَّ رأى بُوطَهُ العسكريَّ، وكحَّ أخيراً، ولم يستطع التنفُّس، وشعر بالثِّقَل، وهذا أصابه بالارتياح، فشعور الثِّقَل، ورؤيته لبُوطِهِ العسكريِّ ذي العنق الطويل، يعني أنَّه سيكون قادراً على المشي، ولكنْ، ما هذا الشيء الثقيل الذي يمنع ركبتَيْه من التحرُّك؟ رفع رقبته، ولاح له هذا الشيء متكوِّماً، فارتعب، ورأى صورة رفيقه الطائر في الهواء! ثمَّ فَهِمَ في الثواني القليلة تلك أنَّه لم يكن سوى كيسٍ من بقايا السواتر الرمليَّة، وهذا يعني أنَّه لن يستطيع التقدُّم بخفَّةٍ، وربَّما هذا ما يعيقه، لذلك فعليه التخلُّص من كيس الرمل. تنفَّس بعمقٍ، ثمَّ حَبَسَ نَفَسَهُ، وكان يفعل ذلك بانتظامٍ وتواترٍ؛ يتنفَّس بعمقٍ، ثمَّ ينهض، وكأنَّه يقوم مِن قبره. يحرِّك جِذْعه من الوسط، ويثني ركبتَيْه، ثمَّ يَقلِب جسده، كان حينها قد تخلَّص من كيس الرمل، وصار جسده كاملاً متكوِّراً على جهته اليمنى، ينفض عنه الأوراق

والأغصان كلَّها، وما تبقَّى من أكياس الرمل، ويرى جسده كاملاً، كما يعتقد، من مَفْرِق شَعْره حتَّى حدود بُوطِهِ العسكريِّ!

مكتبة telegram @t_pdf

لا يعرف عليٌّ مَنْ هو! تأتيه حياته بشكلٍ متقطِّعٍ كما عاشها. نسيَ إن كان عليه أن يتأمَّل في وجوده كإنسانٍ ضمن مجموعةٍ بشرٍ، يعيشون وَفْق قواعد الجبل وتاريخه، لم يخطر في باله تأمُّل شكل وجهه وقَدَمَيْه وأنفه، ومن أين أتت ملامح وجهه القاسية؟ أو أن يسأل نفسه مَنْ هو فعلاً؟ ولِمَ كان عليه أن يكون جزءاً من هذا كلِّه؟ أو حتَّى أن يفكِّر بهذه التُّرَّهَات كلِّها التي يَملُكها الآخرون كتَرَفٍ لا محدودٍ، حين يعرفون ما يريدون في الحياة ويسمُّونه: أملاً أو هدفاً ما، إنَّه يعي أمراً بسيطاً، وهو ممدَّدٌ بلا حَرَاكٍ، يتأمَّل الشجرة والكائن الآخر، إنَّه لا يركِّز في حركة الشمس وما قد تفعله إذا انطفأت، واختفى الكوكب عن الوجود، إذ يبدو أنَّ كلَّ شيءٍ قابلٌ للتبدُّل والتغيُّر بطريقةٍ مفاجئةٍ وغير مفهومةٍ. هو مهتمٌّ بالأشجار ... بالريح والغيوم والجبال، بالمطر والنجوم، بالرائحة والقمر، مهتمٌّ بكلِّ ما يجعله لا يسمع صوتاً سوى النداءات الداخليَّة، مهتمٌّ أكثر بتلك العناصر التي لا تحتاج للثرثرة كما يردِّد لنفسه! لذلك لم يحبّ الحيوانات، ولم يلاحق الطيور. للريح مكانٌ خاصٌّ في نفسه، فقد اعتقد أنَّه يعرفها أكثر من الغيوم والمطر والثلج. كان يَغِبُّ الريح، ويتنفَّسها كمادَّةٍ قابلةٍ للهضم، وهي تمرُّ على خَدَّيْه، ثمَّ تستقرُّ في فمه المفتوح، كان، فعليَّاً، يأكل الريح، يمضغُها، ويبتلعها في بطنه، وكان قادراً على معرفة اتِّجاهاتها مُغمَض العينَيْن، رائياً فيها المطر قبل انهماره، ومُتحسِّساً الثلج من درجة برودتها.

نعم! الريح عنصرٌ أساسيٌّ في حياته مثل الأشجار والغيوم، وهو قبلاً لم يفكِّر بذلك كلِّه، لأنَّه لم يقرِّر أو يعرف إن كان هذا من ضرورات حياته، كان يظنُّ أنَّ تلك هي الحياة، كان لديه شعورٌ غامرٌ بالاطمئنان، حيث لا

يفارق أشجاره وعناصره المحبَّبة. كان جلوسه اليوميُّ فوق سطح بيتهم في الفصول كافَّة بعيداً عن العائلة والجيران جزءاً من كينونته التي لم يعرفها. وفي حُلْكَة لياليه، وهو يتمدَّد يراقب ضلوعه تتحرَّك مع النجوم، وروحه تتقشَّر مثل إجاصةٍ، كان يعرف أنَّه يريد أن يبقى هكذا!

يفكِّر الآن لو أنَّ ريحاً هبَّت، فربَّما سيشعر بقوَّةٍ ما، وفي اندفاعه الذي تفجَّر كرعدٍ أراد أن يعيش، نعم، يريد ذلك ... أن يستيقظ كلّ يومٍ في قريته، يرى وجه نهلة، ثمَّ يدع الريح تداعب خدَّه، وتستقرُّ في بطنه، كان هذا أمراً عميقاً وحيويَّاً لم يفسِّره، وهو حتَّى لا يعرف أن يسمِّيه بالحيويِّ، لكنَّه استشعره في أعماقه.

ما إن ينهض برأسه بذلك النَّوَسَان المتراخي، ويرى أنَّه لا يزال يحتفظ بقَدَمَيْه، حتَّى تجتاح روحَهُ اليقظةُ، رَغْم عدم يقينه إن كانت الحياة ما تزال أمامه، على الأقلِّ لا يزال يشعر بها، يا للنعمة تلك التي مدَّتْهُ بالقوَّة! وأعادت إلى ذهنه ذكرياتِ نسماتٍ خفيفةٍ، مرَّت رائحتها الطازجة أمام أنفه. ربَّما ستُقرِّر السماء مساعدته، وإرسال هبَّاتٍ من ريحها المَطَرِيَّة. لكنَّه الصيف!

حرَّك قَدَمَهُ، وكان على ثقةٍ بأنَّه يستطيع الجلوس، فقد وهبتْهُ خيبةُ الرجاء العزيمةَ، لكنْ، ومع حركة قَدَمِهِ، ودَفْعِهِ لرأسه، واتِّكائه على مَرْفِق يده اليسرى، رأى في الجهة الأخرى لبُوطِهِ العسكريِّ تلك الفجوة، ذلك النقصان الغادر! وهي فجوةٌ لم يفهم معناها بدايةً، فالرؤية ليست واضحةً، رَغْم الضوء الباهر والفضاء الفسيح، ثمَّ اتَّضحت الفجوة الصغيرة في بُوطِهِ العسكريِّ! قَدَمُهُ اليمنى، إنَّها قَدَمُهُ اليمنى! البُوطُ مفتوحٌ عند

كعبه، استدرك أنَّ بُوطَهُ بُتِرَ عند الكعب، حدَّق وتنفَّس بعمقٍ، ونهض، واستقام جِذْعه نصف استقامةٍ، نعم، استدرك أنَّ كعبه الأيمن غير موجودٍ، وما إن حرَّك قَدَمَهُ حتَّى التصق بتلك الفجوة المُدمَّاة ترابٌ وأوراقٌ، وعرف ألماً لم يختبره من قبل، قطعةٌ من جسده، إذنْ، لا بدَّ أنَّها تطايرت مع ذرَّات التراب والرمل، وتناثرت.

جزءٌ منه كان قد دُفِنَ فعلاً!

لم يكن هذا حُلْماً!

مسح بعَيْنَيْه ما يحيط به كلَّه، علَّه يجد جُزأه المفقود، لكنَّه فكَّر؛ لا بدَّ أنَّ كعبه تفتَّت نهائيًّاً! كان في كلِّ مرَّة يكتشف ألماً، ويعرف أنَّه لا يزال حيًّاً، يستنهض عزيمته، هذه المرَّة بدَت مختلفةً، وتمنَّى ألَّا تكون هناك أجزاءٌ أخرى مفقودةً من جسده، سيظلُّ يُمرِّر اللحظات على هذا النحو بالمفاجأة والدهشة، سيدير رأسه، ويرى جسد الكائن الآخر خلف الشجرة، والذي يجلس بالطريقة المترنِّحة نفسها، ويتَّكِئ بمَرْفِقِهِ الأيمن، وينظر إليه، سيفكِّر إن كان قد فَقَدَ هو الآخر جزءاً منه، ربَّما كعبه، ثمَّ غشِيَه حُلْمٌ بأنَّ ما يراه ما هو إلَّا مرآةٌ، وأنَّ ذلك الكائن لا يزال يتحرَّك، ولديه الجرح نفسه في أُذُنه اليسرى، ثمَّ تمنَّى لو أنَّه يراه بوضوحٍ، ونزعه من رأسه، وهو يفكِّر بوحوش البرِّيَّة التي ستأتيه ما إن يهبط الظلام. هو ينتظرها!

كيف يكون حال قطعةٍ من لحمه تتناثر في الهواء؟! ستكون مثل ذرَّات التراب!

عضَّ على شَفَتَيْه، فذاق ملوحةً، تشوبها مرارةٌ، تشبه مذاق ثمر السَّنْدِيَان، مرارةٌ مع ملوحةٍ إضافيَّةٍ، وظنَّ لوَهْلَةٍ أنَّه يشبه العِجْل الذي مشى بنصف رأسٍ، وصورة العِجْل جاءت بذكريات الريح والشجرة قرب المَقَام، فألهمتْهُ الصبر، والريح التي يعرفها دون غيرها، كان يلاعبها ويستأنس بها متهادياً فوق الجُرْف الصخريِّ، فبعد رفضه المدرسة والعلقة الشديدة حين ربطه أبوه على جِذْع شجرته، قفز في اليوم التالي من فراشه قبل طلوع الفجر البارد، كان الشتاء في أوَّله، وفي تلك الجبال، يضرب الفجر الوجوه كحَدِّ موسٍ، وهذا لم يمنعه من الخروج، بالرَّغْم من جروح قَدَمَيْه التي تركتْها آثار العصا، مشى باتِّجاه الجُرْف الصخريِّ، اجتاز الدروب حتَّى الجهة المقابلة مُتجاوِزاً الغابة، إلى أن ظهرت الصخور أمامه، ولاح الشَّقُّ المقابل للجبل، حيث انشقَّت الأرض، وصنعت منحدراً سحيقاً. كان أهل القرية يُسمُّون المنحدر بوادي الجحيم.

جلس على حافَّة الصخرة، وعاودتْهُ رغبة الطيران! خلع شحَّاطته البلاستيك، وفَرَدَ رِجْلَيْه في الفراغ، ورقَّص أصابعه الزرقاء الجريحة من آثار عصا الرمَّان، وتنفَّس بارتياحٍ، لتلعب الريح بأصابعه. كانت نسماتٌ باردةٌ وحادَّةٌ، وكافية لجعله يسترخي ناظراً إلى هُوَّة الوادي، لَاعَبَتْهُ السماء أيضاً، والأمطار التي سقطت بعد طلوع الضوء بلَّلتْهُ، وأمسك بأطراف أصابعه نتوءات الصخر، ونظر إلى الأسفل في الجهة المقابلة، وتساءل إن كان هناك شجرٌ غريبٌ من نوعه، لم يعرفه بعد؟ الحْمَيْرُوْنَة أخبرتْهُ أنْ لا شيء استثنائيٌ هناك، ليس إلَّا نهرٌ صغيرٌ يعرفه، ويستحمُّ به، وأحراش يستطيع أن يصل إليها مشياً من القرية المجاورة، فهذا يبدو أكثر سهولةً، لأنَّ انحدار الصخر في الجهة المقابلة أقلُّ حِدَّةً، وربَّما يحمل صُرَّةً صغيرةً من ثيابه، ويهبط باتِّجاه الوادي، ويمشي إلى أن يجد مكاناً يعيش فيه بلا عودةٍ،

وعاد عن فكرته، فهو يحبُّ السَّكَن في الأعالي مع الريح، ثمَّ اضطجع إلى الوراء، وجعل من جسده زاويةً قائمةً ملتصقةً بالجُرْف الصخريِّ، كان يبدو للرائي من بعيدٍ كقاعدة مثلَّثٍ قائمٍ، إذ إنَّه تخيَّل شخصاً ما ينظر إليه من فوق، هذا الشخص سيرى عليَّاً جزءاً من الجُرْف، نصفه السفليُّ معلَّق في الريح، وتتأرجح قَدَمَاه في الهاوية، بينما نصفه الثاني مُتشبِّثٌ بالصخر مُصالِباً يَدَيْه، مُخرمِشاً بأصابعه حوافَّها المسنَّنة. تمنَّى لو أنَّ هذا الجُرْف يتحوَّل إلى عمودٍ صخريٍّ شاهقٍ، يعلوه سريرٌ من الحجر، وقرب السرير شجرتا سَنْدِيَان؛ شجرة بيتهم، وشجرة المَقَام، وعَدَل عن أُمنيَّته، فجذوع الأشجار لن تنبت في كتلةٍ صخريَّةٍ مثل هذه، لكنَّه كان على يقينٍ أنَّها ستجد طريقها، لتمدَّ جذورها في الصخر نازلةً عبر العمود الصخريِّ باحثةً عن ترابٍ، وراقت له هذه الفكرة، فابتسم، ثمَّ ابتلع حبَّات المطر، ومَدَّ لسانه، واستساغ طَعْم القطرات الصغيرة، وحرَّكها فوق لسانه، وضحك بصوتٍ عالٍ، وهذا لم يحدث إلَّا نادراً، ثمَّ نسيَ ألم أصابعه وظَهْره، وآثار جَلْدِ عصا والده، وقد كانت تلك العصا مصنوعةً من شجر الرمَّان، رقيقةً وناعمةً، سَحَبَها عليٌّ مِن تحت فراش أبيه الذي كان يحتفظ بها مثل كنزٍ ثمينٍ، سَحَبَها بحرصٍ وخشيةٍ، عندما تسلَّل قبل طلوع الفجر، أمسكها بقوَّةٍ، وتلمَّس نعومتها وانسيابها، وقبض عليها بتصميمٍ، ثمَّ فرَّ إلى الجُرْف، يُلوِّح بها في الهواء، رماها في الوادي عندما وصل الجُرْف، وهوت أمامه بينما حبَّات المطر تلعب مع لسانه، ويلاعبها، هو لا يحتاج سوى إلى حُلْمه بالسرير الصخريِّ القائم على عمودٍ شاهقٍ، هذا سهلٌ، وليس صعباً، لقد سمع يوماً قصَّةً ما عن رجلٍ عاش هكذا ... ولكنْ!

كانت السماء قد اسودَّت، وهطلت الأمطار بغزارةٍ، فاستقام من جديدٍ، وأرجح قَدَمَيْه ناظراً إلى الهاوية، ولم يشعر بالخوف! آلمه ظَهْره، لم يعُد

يستطيع الاستلقاء، فسحب جسده، وكوَّر ركبتَيْه باتِّجاه ذقنه، ثمَّ استقام، واقترب من الحافَّة، ثبَّت قَدَمَيْه، وفَرَدَ ذراعَيْه، ودغدغتْهُ قُشَعْرِيْرَةٌ في ظَهْره أو هكذا اعتقد، وفتح عَيْنَيْه، ورأى سعة السماء واتِّساع الغابة والأحراش، كان مستعدَّاً للطيران، تُغويه الريح باللعب معها، واللعب مع الريح يعني الطيران، يقول لنفسه، كان يريد أن يلعب لعبته الأثيرة تلك، ولو مرَّة مع الريح مستغنياً عن الأغصان، وتنفَّس بعمقٍ مبتلعاً بطنه حتَّى شعر أنَّ عظامه ستخرج من صدره، وفي تلك اللحظة، انهمرت الأمطار بغزارةٍ، وتوقَّفت الريح، فاستفاق من رغبته المُلحَّة بالتحليق، وابتعد عن الحافَّة خطوتَيْن، وأمسك بنتوءٍ صخريٍّ حادٍّ، نبتت أسفله نَبتةٌ، ولم يلتفت ليرى أيَّ نوعٍ من النبات، كان شَوكيَّاً، وجُرحت أصابعه، وتكوَّر حول نفسه، ضامَّاً ركبتَيْه إلى صدره، وهَمْهَمَ: "رَحْ عِيْشْ هُوْنْ"!

لم يعشْ عليٌّ هناك! بقي حتَّى الليل، ولم يتحرَّك، عندما تعب، استلقى على وضعيَّة تكوُّره. بحث عنه أهله طوال النهار، ولم يجدوه، وكانت أدعية نهلة تُسمَع، وهي تصرخ في الوادي المقابل لبيتها، فقد ظنَّت أنَّ ولدها سقط في الوادي، ولحق بخالته، وكان أبوه يهيم في الأحراش صارخاً باسمه. عثروا عليه نهار اليوم التالي، كان قد غاب عن الوعي، نصفه مُعلَّق في الريح، كما ردَّدت الجارات. رأوه هناك متكوِّراً حول نفسه مثل كرة الشوك، وقد مَدَّ لسانه، وعضَّه، ونزَّت منه بضع قطراتٍ من الدم، وعندما عادوا به، حلفت نهلة بمَقَامَات الأولياء كلِّهم ألَّا تجعله يعود للمدرسة، ونَذَرت نَذْرها ذاك! وهو نَذْرٌ مقدورٌ عليه، لأنَّه لا يتطلَّب منها ذبائح وأموالاً. نَذَرت أن تمشيَ حافيةً مع ولدها إلى مَقَام الشيخ الوَلِيِّ الكبير، علَّه يشفيه من شروده، ولم تقلْ خَبَله، كما كانوا يردِّدون في القرية!.مكتبة

لم تجرؤ نهلة حتَّى في أشدِّ لحظات خوفها ويأسها إلَّا أن تنطق بذلك النَّذْر، فقد كانت حالتهم المعيشيَّة تسوء يوماً بعد يومٍ، وولَّت الأيَّام التي كانت تعمل فيها من أجل الوفاء بنُذُور الذبائح. لقد أقسمت على ذلك، ولن تتراجع عنه. زَلَقَ لسانها بتلك الجملة وهي تنزع عن عليٍّ ثيابه المبلَّلة مُنتظِرةً الطبيب: "حِفْيَانِيْن ... بِرْدَانِيْن ... بَدْنَا نِمْشِي هَالطَّرِيْقْ".

وكان عليٌّ فَرِحاً بما سمعه، ونسيَ حُلْم العيش على صخرةٍ عموديَّةٍ، كان بدأ يترك عالَمه الطفوليَّ مطمئنّاً إلى أنَّهم رضخوا له أخيراً، وقد تخيَّل كيف ستكون الرحلة، رَغْم أنَّ المَقَام ذاك بعيدٌ. أكثر ما راقه تفصيلان: أن يمشيا ... ثمَّ أن يكونا حافيَيْن، هو وأُمُّه في الطريق.

عندما وصلا المدينة، رأى نهلة تنحني وتخلع حذاءها، منذ وعيه يرى أُمَّه بالحذاء نفسه، الكندرة البنِّيَّة ذات الكعب المربَّع، والتي تُطَقْطِق بها عندما تمشي، اشترتْها من سوق الثياب المستعمَلَة، وكانت تفاخر أنَّها صناعةٌ أجنبيَّةٌ. انحنى وفعل مثلها، وبسرعةٍ أخذت حذاءه، ووضعتْهُ في كيسٍ، ثمَّ أمسكت يده بقوَّةٍ، ومضت دون أن تنطق.

كان قد مضى على حادثة الجُرْف الصخريِّ أكثر من أسبوعٍ، قضاها طريح الفراش، وقال لهما الأب إنَّ الطقس باردٌ، وحاول منع نهلة عن الوفاء بنَذْرها بهذه السرعة، وردَّت نهلة بأنَّ هذا فأل خيرٍ، فالمشي في الصيف حافية القَدَمَيْن لا يعني شيئاً، وقَرْصَة البرد هي فحوى نَذْرها. كثيرون بمَنْ فيهم "الحْمَيْرُوْنَة" حاولوا إقناع تلك النحيلة بأن تؤجِّل الوفاء بنَذْرها حتَّى

يأتي الربيع، لكنَّها خافت غضب الله، وهلاك ابنها، فيما إذا لم تفِ بنَذْرها سريعاً، وأضافت بأنَّها ستُعلِّم ولدها كيف يكون رجلاً، وهو قد احتمل قسوة الجُرْف وضِباعه ليلةً كاملةً دون أن يَمسَّه سوءٌ، وهذه إشارةٌ لها. عليها أن تفيَ بنَذْرها.

وهكذا أمسكت بيده بذلك الحزم والتصميم، يذكر يدها الخشنة كيف أحكمت على أصابعه، وشدَّتْهُ وراءها رَغْم البرد ورَغْم الخدوش وآثار جروح قَدَمَيْه، وأخبرتْهُ بأنَّ الأمر سيكون هيِّناً، وما عليهما إلَّا أن يتبعا طريق الأوتوستراد الذي شقَّتْهُ الحكومة بين دمشق واللاذقيَّة، وشقَّت معه أراضي المزارعين وبساتينهم، وكانت المرَّة الأولى التي يرى عليٌّ فيها بساتين الحمضيَّات وسكَّة القطار التي تُحاذي الأوتوستراد، رَغْم أنَّه وطوال الساعات القادمة لن يرى قطاراً، واستغرب كيف يشقُّون سكَّة حديدٍ، لا تمشي فوقها قطاراتٌ؟! كانت أشجار الليمون والبرتقال كبيرةً، لكنَّها ليست بحجم أشجاره، ولن تستطيع منافستها، كما ردَّد لنفسه منتعِشاً! لكنَّها تشعُّ ببريقٍ مختلفٍ تحت حبَّات المطر، اكتشف أنَّ لضيائِها لون الفضَّة، ورائحتها فتحت شرايين قلبه، وقد فتنتْهُ تلك السعة الفسيحة المترامية أمامه، وامتزاج لون السماء الرماديِّ مع الغطاء الأخضر، ولم يعرف حينها أنَّه سيتحوَّل إلى أجيرٍ في تلك البساتين، وأنَّه سيراها من داخلها، وسيكتشف أنَّ هناك أشجار برتقالٍ ضخمةً، لم يتخيَّلها قطُّ، كان ينظر إلى البيوت والقرى الممتدَّة خلفها بفرحٍ، ويفكِّر أنَّ أُمَّه ستكافئه بمشوارٍ سريعٍ إلى البحر، وهذا لن يحدث، لأنَّ قَدَمَيْها ستتشقَّقان وقَدَمَيْه كذلك، وكان يسعل بشدَّةٍ في أثناء المشي، فقد تعرَّض لنزلة بردٍ قاسيةٍ بعد حادثة الجُرْف الصخريِّ، وأُمُّه قالت له إنَّ هذا جزء من النَّذْر، وإنَّه كلَّما تألَّم،

وأظهر صبراً، اقترب من الله، وكانت، بين حينٍ وآخر، تضيف، بأنَّه عندما يكبر سيعرف ما يعنيه رضا الله والأولياء الصالحين.

حين سيصل عليٌّ المَقَام سينظر مدهوشاً إلى المكان، فهو لا يشبه الصورة التي رسمها في رأسه للريح والأشجار، إنَّه لا يشبه مَقَامَات الجبال العالية! كان مكاناً أشبه ما يكون ببيتٍ مُعدٍّ لاستقبال الضيوف والزوَّار.

دخلا معاً بالقَدَم اليمنى عند المدخل، وقبَّلا الجدار من جهة اليمين، وقبَّلا أعلى الباب، ثمَّ الجدار اليساريَّ، ودَلَفَا بخشوعٍ، وضاعت منه تلك الغِبْطَة المُنتظَرة. ها هو يستلقي إلى جانب الضريح مُدثَّراً بقماشٍ أخضرَ، معلِّقاً عَيْنَيْه بطاقة مفتوحة، تبدو منها أغصان شجرةٍ. تمسح نهلة وجهه وقَدَمَيْه بالزيت، بينما يقدِّم الناس لهما متعاطفين الطعام والشراب. كانا مُنهَكَيْن ومُبلَّلَيْن بالمطر، يتنفَّسان بصعوبةٍ، وكانت السماء قد حسمت أمر بقائهما حتَّى الصباح، ونهلة، أيضاً، حسمت أمرها بألَّا تعود مشياً على الأقدام حين رأت قَدَمَي ابنها! الأقدام نفسها التي يفكِّر فيها عليٌّ، الأقدام والكعب الناقص والأصابع التي عادت به إلى ذكريات الجُرْف الصخريِّ والمَقَام، وهي الأصابع نفسها التي لا يستطيع رؤيتها، وهو ممدَّدٌ، ويرى خيالاتٍ فوق طرف بُوطِهِ العسكريِّ من دماءٍ ومِزَقٍ من لحمٍ، تطايرت مع كعبه، لكنَّه عندما كان هناك في المَقَام لا يزال قادراً على تلمُّس تشقُّق كعبه، وجروح باطن قَدَمه، كان هانئاً. فحين لفَّت أُمُّه حول صدره الرداءَ الأخضر، ومسحت على جبينه بزيتٍ مباركٍ، قُرِئَت عليه آياتٌ قرآنيَّةٌ، وقالت جملتها التي ردَّدتْها مرَّات ومرَّات: "وْلَادِي أَمَانْتَكْ، يا شِيْخْ بُوعَلِي ... يِرْزِقْنَا رِضَاكْ ... وْلَادِي ... لَحْمِي ودَمِّي، رِبَّيْتْهُنْ كِلْ شِبْرْ بْنِدْرْ... رِبَّيْتْهُنْ بدَمِّي ولَحْمِي ..."؛ ثمَّ مَدَّت الغطاء الأخضر، ولفَّتْهُ ثانيةً حول

جسد عليٍّ، وتسرَّب إليه الدفء، وكانت الأصوات خافتةً مُتضرِّعةً، وسقف القبَّة ليس عالياً، وجدرانها النظيفة والمَطليَّة بالأبيض تكسوها اللوحات، وتتوزَّع نُسخ القرآن حول الضريح، وعلى خلاف مَقَامَات كثيرةٍ، لم يكن أولياؤها مدفونين فيها، بل كانت تشريفاتٍ لهم، فقد كان وَلِيُّ الله هذا - قُدِّس سرُّه كما يردِّد شيخه - مدفوناً هنا. ثمَّ التصق بالضريح، واعترتْهُ رَجْفَةٌ، ولم يشعر بالخوف أنَّه ينام إلى جانب قبرٍ، أُعيد بناؤه بالرُّخام، وفكَّر بمَقَام قريتهم المَبنيِّ من الإسمنت، والذي يستعذب أن يُسمِّيَهُ بمَقَام الريح، فقد بُني في أعلى قمَّة الجبل، وكانت الجهة اليمنى لجداره ملتصقةً بجِذْع السِّنْدِيَانَة التي يقول أهل القرية إنَّ عُمُرها يتجاوز الخمسمئة سنة، وكانت الأغصان تَحضُنه مثل كفِّ يدٍ ممدودةٍ، وتغطِّي أغصانها قبَّته، هناك أغصانٌ تتفرَّع نحو الأعلى، وهي الأغصان التي تسلَّقها مراراً، وبقي يتأمَّل من فوقها قِمَم الجبال، وقد سمع أُمَّه تردِّد بأنَّهم يعيشون تحت سَكَنِ الله بقليلٍ! وهذا كان يُشعِره بالامتياز، وكأنَّه امتلك سرَّاً ما يخصُّه وحدَه. مَقَامه؛ مَقَام الريح صغيرٌ ومَطليٌّ بالكلس ونظيفٌ، وضريحه متواضعٌ، تُغطِّيه قطعة قماشٍ خضراءُ واحدةٌ، وأوانٍ فخَّاريَّةٌ للزيت والبخور. في السنوات الأخيرة جلب (أبو الزين) تلك اللوحة الكبيرة التي تضمُّ صور أوليائهم مع الرئيس الأب. لوحة كبيرةٌ تتوسَّط جدار المَقَام، لا تتجاوز المتر طولًا وعرضاً، لوجوه رجالٍ، تفصل كلَّ وجهٍ عن الوجه الآخر هالةٌ من البياض، وُلِد عليٌّ وهو يرى تلك اللوحة، ولطالما حيَّرتْهُ، وقالوا له عندما كان ما يزال في الخامسة إنَّ هؤلاء الرجال هم الأولياء الصالحون، وكان حين ينظر إليها يحاول إيجاد شبهٍ ما بين هؤلاء الأولياء، ولم يفهم لِمَ كان الرئيس الأب مختلفاً، ولا يضع العِمَامَة أو العِقَال كما يفعل البقيَّة؟! وما هو السبب الذي جعله بينهم؟! ولِمَ صُوِّر على هذه الطريقة، وهو يرفع كفَّيْه إلى أُذُنَيْه؟! لقد كان يُصلِّي فعلاً! وكان عليٌّ يُحبُّ أحد هؤلاء

الأولياء حبَّاً خالصاً، كبرَ وهو يرنو إليه، ويفضِّله عن غيره، فقد كان وجهه مُضاءً بقداسةٍ بدرجاتٍ من الألوان، فتحت في قلبه نافذةً إليه، رَغْم أنَّها ألوان تتدرَّج بين الأبيض والأسود، وكانوا في اللوحة تسعة وثلاثين شيخاً ووَلِيَّاً. صورة الرئيس كانت في الصفِّ ما قبل الأخير، صورة وَلِيِّهِ المفضَّل كانت في الصفِّ الأوَّل، وكان كلَّما دخل المَقَام ينظر إليه ويخاطبه، ويعتقد أنَّه الأجدر بينهم، ويفعل ذلك مفتوناً به عدا عن ألوان رسمِهِ التي يغلبها البياض، كان مسحوراً بتقاسيم وجهه، وبلحيته البيضاء الكَثَّة، وسَحْنَته النحيلة، والخَدَّيْن الضامرَيْن اللذَيْن جعلا من وجهه حزيناً وزاهداً! كان في السادسة عندما عقد علاقة حبٍّ خفيَّة بينه وبين وجه الوَلِيِّ ذاك، وسأل أُمَّه مرَّة إن كان أولياؤهم رؤساءَ مثل رئيسهم أم أنَّ رئيسهم مثل أوليائهم؟! وهل كانوا جميعاً رؤساء؟ ولم تجب أُمُّه، بل نظرت إليه، وأدارت وجهها عنه قائلةً: "شَايْفِي صَارْ إِلَكْ لْسَانْ وصِرْتْ بْتَعْرِفْ تِحْكِي، قُوْمْ اِنْقِلِعْ مِنْ هُونْ".

بعد تلك الحادثة، لم يأت على ذِكْر الأمر، كان صغيراً على ذلك، ولم يعْد للتحديق في اللوحة، ولم يهتمّ إن كانت صورة الرئيس بين الأولياء، واحتفظ بصورة وَلِيِّه في قلبه، وكان ينظر إليها وحيداً، وهي في داخله بينما يقفز بين الصخور بخفَّةٍ وسرعةٍ، وكانوا يسمُّونه تَيْس الجُرْف، وهذا كان يُضحِكُهُ ويُسلِّيه، ويجعله يقفز بين الصخور بخفَّةٍ أكبر متحدِّياً سخريَّتهم، ولم يشعر بالإهانة عندما وصفوه بالتَّيْس، فالإهانات التي تلقَّاها في حياته ظنَّ أنَّها حدثت في ذلك المَقَام الرُّخاميِّ، وهو يتدثَّر بالرداء الأخضر المُبارك، ويغفو مُثقَلاً بالتعب والجروح، وتلك الإهانة التي رأت أُمُّه فيها نوعاً من الخلاص ورضا من الله عنه، وعن نَذْرها، بدأت وهي تمسح بثوبها قَدَمَيْه المُبلَّلتَيْن بالدم والزيت، يذكر أنَّها فَرَكَتْ كعب قَدَمه، يشعر بمَلمَسها الآن،

ويستغرب كيف مرَّت تلك السنوات ونسيَ تلك اللحظات التي تعود إليه الآن، ويشعر بها مع كعب قَدَمه المقطوع . كانت تمسح قَدَمَيْه بالزيت، وتُوقِظه من غفوته وتوقظ وخزات الألم معه، فآثارُ عصا الرمَّان ما تزال تشقُّ باطن القَدَم، والمشي حافياً تحت المطر لنهارٍ كاملٍ، جعل جروحه تتشقَّق من جديدٍ، ثمَّ قامت نهلة بتلك الحركة حين أمسكت بوجهه، ومسحتْهُ بالزيت وهي تردِّد: "وْلَادِي أَمَانْتَكْ، يا شَيْخْ بُوعَلِي ... يِرْزِقْنَا رِضَاكْ ... وْلَادِي ... لَحْمِي ودَمِّي، رِبَّيْتْهِنْ كِلْ شِبْرْ بْنِذْرْ ..."، وقبَّلت أصابع قَدَمَيْه، ولعقتْها، وبكتْ، سيذكر أنَّها كانت تُضرب مثله بعصا الرمَّان نفسها، وأنَّها بين حينٍ وآخر تهرب مُنتحِبةً إلى زاوية الغرفة الثانية، كانت نهلة لا تجيد القراءة والكتابة، وأبوه بالكاد يفكُّ الحرف، وكان يصرخ بها أن تُعلِّم أولاده، ويضربها حين يكتشف أنَّها غير صالحةٍ لذلك، وهو نفسه الأب الغاضب ينسى أنَّها لا تستطيع القراءة والكتابة، ثمَّ كان يضربها لأسبابٍ لا تخفى عن عليٍّ، كأن تمنعه من الاستلقاء فوقها، فالأولاد نيامٌ قربها، وهي تعرف أنَّ بطنها سينتفخ بعد ذلك، وستأتي بكومة لحمٍ من جديدٍ، تعذِّب قلبها، وتفطر فؤادها، كما يفعل عليٌّ وأُخوته، كانت تقول إنَّ حبَّها لأولادها يقتلها، لذلك لم يمنعها عليٌّ من تقبيل ولَعْق أصابع قَدَمَيْه!

في هذا المشهد الذي لا يمكن لأحدٍ التفكير به على أنَّه إهانةٌ، كان عليٌّ مُهانَاً، وهو شعورٌ غير مُعرَّفٍ بالنسبة إليه، هو لم يدرك أنَّه مُهان بالمعنى الحَرْفِيِّ للكلمة، كان شعوره أنَّ أحداً ما يدوس على رقبته! هكذا وصف الأمر لنفسه، كان يتكوَّر حول نفسه، ويَحضُن الضريح، ويريد أن تتوقَّف أُمُّه عن البكاء ولَعْق جراحه، وتلك الإهانة استقرَّت عميقاً في قلبه عندما سمع رجلاً يقول: "قُومِي اِنْقِلْعِي مِنْ هُون ولَكْ مَجْنُونِة، طَلْعُوها مِنْ

هُون، الله يْدِيْم عْلَيْنَا العَقْل والدِّيْن، يَا رَبّ"، وكان الرجل ذاك والذي لمحه عليٌّ بطرف عَيْنَيْه، يحمل سُبْحَةً في يده، كان أحد الشيوخ، ولكنَّه لم يكن شيخ المَقَام؛ كان من الشيوخ الجُدد الذين ظهروا في العقود الأخيرة، وشيخ المَقَام الذي ظهر لاحقاً، بدا طيِّباً، كما ستذكر أُمُّه بعد ذلك.

لقد مرَّت الحادثة على هذا النحو؛ كانت نهلة تحمل القرآن بيدها، وتقبِّل قَدَمي ابنها، وتسأله أن يقرأ منه، وكان الرجل ذو المَسْبَحَة الطويلة ينظر إليهما، فصرخ بجملته تلك مُنتزِعاً القرآن مِن يدها: "هَي المَرَا مَانْهَا طَاهْرَة، طَلْعُوهَا مِنْ هُونْ، يَلَّا قَلْعُوهَا مِنْ هُونُ"، ولم يكن أحدٌ لينفِّذ ما يقوله، فهنا مكانٌ مقدَّسٌ، ويحقُّ للضعفاء والفقراء أن يتمسَّحوا فيه، لكنْ، أن تأتي امرأةٌ تُرى الدماء على ثوبها، فهو أمرٌ لن يُسمَح به، وكانت تلك الدماء هي دماء عليٍّ التي تبقَّعت على ثوبها، وقد ظنَّها الشيخ دماء حَيْضها. لم يفهم عليٌّ ما يحصُل، لكنَّه استشعر الاشمئزاز منه، ومِن أُمِّه، وتكوَّر حول نفسه، وأغمض عَيْنَيْه، كان متهالكاً من التعب وحُمَّى خفيفةٌ بدأت تسري في بدنه الضعيف، وعاد صوت الشيخ جَهْوَرِيّاً، يأمر نهلة بالخروج من المَقَام. يسمع عليٌّ زخَّات المطر وصوت الشيخ الغاضب، ويتكوَّر حول نفسه؛ بالنسبة إلى الناس المجتمعين في المَقَام، كان ولداً في الثانية عشرة من عُمُره، أتت به امرأةٌ تشبه المتشرِّدات، لتشفيَهُ من لوثةٍ ما، قالت للمُتحلِّقين حول الضريح عند وصولهما إنَّ ولدها لا يشبه الأولاد الآخرين، فهو دائم الشرود، ويعتقد أنَّه شجرةٌ، لذلك فهم يصفونه بالمخبول، وهي تعرف أنَّ ولدها ليس مخبولاً، وهو فقط بحاجةٍ لبركة الأولياء الصالحين، وقد ساعدوها، وبكتْ معها امرأةٌ، تُتَمْتِم بآياتٍ قرآنيَّةٍ، وهي تضع أحجاراً من المَقَام فوق بطنها المنتفخ، وتمرِّرها عليه بنعومةٍ. وامرأةٌ أخرى أخذتْها بين ذراعَيْها، وربَّتت على كتفَيْها. تركوا نهلة تفعل ما

تريد، فالله يَحضُن أولاده المساكين. حينها في تلك اللحظة بينما خلا المَقَام من زوَّاره المتزاحمين، قال الرجل قوله ذاك، وصرخ، كان عليٌّ على وشك أن يغفو، وأُمُّه مَدَّت يدها، ولَثَمَتْ يد الشيخ، ثمَّ ناولتْهُ القرآن، وأدارت ظَهْرها للضريح، وهي تَشهَق، كان عليٌّ قد صحا، ونظر إلى الشيخ تلك النظرة التي تعرفها أُمُّه، وهبَّ واقفاً، وأطاح به بضربةٍ واحدةٍ، فوقع الشيخ على الأرض، وانتظر عدَّة ثوانٍ، ليصحوَ من هول الصدمة، وهي تلك الثواني التي جعلت عليَّاً يقفز فوق صدره، ولا يتوقَّف عن لَكْمِهِ حتَّى انتزعه الرجال مِن بين يَدَيْه، ثمَّ جرُّوه خارجاً وسط دهشة الجمع، وبقي عليٌّ ينظر إلى أصابع قَدَمَيْه غير مُبالٍ بهم.

له قصَّةٌ مع تلك الأصابع!

كان عليه الدخول حافياً إلى المَقَام، فكان يبقى لساعاتٍ مُمدِّداً قَدَمَيْه، وظَهْره يتَّكئ على حائط الضريح مُراقِباً أصابع قَدَمَيْه لاعباً بها، مُستعذِباً البرودة. كان يَغرِس أصابع قَدَمَيْه في أرض المَقَام، وتنتابه خفَّةٌ وضياءٌ نادران، كان شعوره هذا يحمله على ريحٍ خفيفةٍ عارياً، وكأنَّه إحدى غيومه، وتلك اللحظات التي كان يتبدَّد فيها كما تفعل غيومه، كانت تمنحه طراوة العيش وحلاوته، وكانت الحْمَيْرُوْنَة تقول له، بأنَّ المَقَامَات كلّها تنام في جذوع الأشجار، ولهذا فهو يشعر بأنَّه يطير وهو يدخلها، فهي مباركةٌ، تحرسها الأشجار المقدَّسة التي بقيت على حالها، كما عاشت قبل مئات السنين، ولكنَّ عليَّاً لم يكن مهتمَّاً بما تقول الحْمَيْرُوْنَة، فقد كان مثل غيره، ورَغْم ولعِهِ بها، يَشرُد عن هَذَرِهَا الطويل، وعدا عن قصَّة الأصابع تلك، والتي يعتقد أنَّها تتحوَّل إلى جذورٍ أو أغصانٍ حال دخوله المَقَام، فقد وجد أنَّ الخفَّة والطراوة تشبهان تلك التي تباغتُهُ، وهو يصعد الأشجار،

ويقفز في الجروف الصخريَّة، حتَّى إنَّه فكَّر، يوماً ما، أنَّ أصابعه ستلتصق بالأغصان، وتلتحم بها، وقد جرَّب مراراً أن يقف فوق غصنٍ ما، وأن يرفع يَدَيْه كجناحَيْن، ويثبِّت جسده بأصابع قَدَمَيْه، كما تفعل مخالب صقرٍ، ونجح في أن يُرِي أهالي القرية ممَّنْ يزورون المَقَام كيف يمشي فوق الأشجار كطائرٍ دون أن يسقط، وكيف يُصالِب رِجْلَيْه فوق أغصانها، وينقلب كخُفَّاشٍ ويتأرجح، وهو كان بتلك الخفَّة نفسها عندما انتزعوه من فوق جسد الشيخ ذي السُّبْحَة، وأُمُّه تنظر إليه بفزعٍ مُنتَظِرةً أن يتمَّ طردها في الليل البارد، وكانت أصابعه تتشبَّث بأرض المَقَام بتلك الطريقة النادرة التي يحفظها في قلبه، ولم يكن مغتاظاً ولا غاضباً، كان يتنفَّس بصعوبةٍ، وينظر إلى أُمِّه، ويمدُّ يَدَيْه، ثمَّ يمسِّد شَعْرها بحُنُوٍّ، كان وجهه هادئاً، وجاء الشيخ المسؤول عن المَقَام، وأمسك بالصبيِّ من يده، وربَّت على رأسه، ونهض عليٌّ مع أُمِّه، ولم يستطع الوقوف، فحمله شيخ المَقَام، وقال لنهلة أن تلحق به، وأن تبيت الليلة مع ابنها في داره، كان ينظر إلى أصابع الولد الذي يتنفَّس وكأنَّه يختنق، ويتطلَّع إلى هدوء عَيْنَيْه الواثق، ويتلو عليه الآيات القرآنيَّة. لم يُوجِّه توبيخاً لأيٍّ كان، دخل برحمته، وخرج بوقاره، وتأمَّل عليٌّ وجهه بوَجَلٍ، فقد بدا له وجهه مُشابِهاً لوجه الوَلِيِّ المُحبَّب في لوحة الأولياء داخل مَقَام الريح؛ مَقَام قريته، لوجهه السَّحْنَة نفسها؛ الشحوب، النحول، اللحية، السكينة العميقة في العينَيْن! هنا اضطرب عليٌّ، ونسيَ آلام قَدَمَيْه وأصابعه، أَسلَمَ رأسه، وأرخاه على كتف الشيخ غير مُبالٍ بخجله من أصابعه.

كانت أصابعه تُخجِلُهُ، ويسعى جاهداً لإخفائها، فتلك الأصابع تتفرَّع كأغصان شجرةٍ متفاوتة الأحجام، واحدٌ قصيرٌ وآخرُ طويلٌ، وأصابع القَدَم اليمنى لا تحمل أطوال أصابع اليسرى نفسها، أمَّا الإبهام، فكان أصغرها!

وهو إذ ينظر الآن إلى مقدِّمة بُوطِهِ، ليتأكَّد إنْ كانت أصابعه قد تناثرت مع القذيفة، يرى كعبه الناقص، ويذكر أصابعه التي حدَّق الشيخ فيها عندما حمله، فيحرِّك قَدَمه اليمنى، ويستقيم جِذْعه، ويَفْرِد ساقَيْه، ثمَّ يمدُّ يده ببطءٍ، يشعر بأنَّ أضلاعه تتكسَّر، فيتحرَّك ببطءٍ أكبرَ محاوِلاً نزع آخر كتلةٍ من الرمل والأوراق والأغصان عن ركبتَيْه، فيظهر بُوطُهُ أمامه كما هو، وأصابعه ما تزال في داخله، ونِثَار الطين والغبار أحالت لونه الأسود إلى أبيضَ، فيجرُّ جسده بكوعه إلى الأمام، ويلمح الشرايين المتدفِّقة والدماء التي تحوَّلت إلى بركةٍ تحت كعبه، وحينها يُصدِّق أنَّه ربَّما يكون مُصاباً في مكان آخر، لا يشعر به، وما عليه سوى أن يراه، ليُدركَهُ!

مكتبة telegram @t_pdf

مكتبة
t.me/t_pdf

الأحلام التي يمكن وصفها برقائق الضوء المتكسِّرة بين حركة الأوراق، كانت بالنسبة إلى عليٍّ شيئاً بسيطاً، يسمِّيه الآخرون، بيتاً، أو المكان الذي يُغمضون فيه أعينهم بطمأنينةٍ، وهو أمرٌ يختلفون حول تسميته في أعمارهم الماضية سريعاً نحو الانطفاء، وعليٌّ لم يختلف مع الناس، ولم يرغب بجدالهم وخصامهم حول ما يَعنُونه وما يفهمونه، ويتحدَّثون بشأنه، كان يُنصِت مستغرقاً في صمته في الأوقات القليلة التي قُدِّر له فيها الوجود معهم.

كان بيت عليٍّ عِرْزَالَهُ. كان يلفظ كلمة بيتٍ كلَّما أراد الإشارة إليه. بيته الذي شيَّده بعناصره المُحبَّبة، والتي يسمِّيها أصدقاؤه موادَّ بنائه من أغصان الشجر، وأرضه كانت السِّنْدِيَانَة التي تتفرَّع بأغصانٍ دائريَّةٍ، لا تتطاول نحو الأعلى مثل سِنْدِيَانَة المَقَام، بل تَفْرِدُها مثل راحة يدٍ مفتوحةٍ، وتتركها قريبةً من الأرض. إذا أراد عليٌّ وصف شجرةٍ، كان يضع راحة يده، ويحرِّكها مع أصابعه، ليصف أشكال الأشجار. وهذه الشجرة التي صنع عِرْزَالَهُ فيها مرَّ عليها - كما يردِّد أهل قريته - رجالٌ ثاروا ضدَّ الأتراك والفرنسيِّيْن، وقد نام داخل الشجرة في المساحة التي تُشكِّلها الشجرة من تفرُّع أغصانها ثلاثة رجالٍ من الثوَّار الهاربين من الجنود الفرنسيِّيْن، ووجدوا قرب جِذْعها رضيعاً قبل قرنٍ مضى، وتحت أغصانها قبل أكثر من نصف قرنٍ أيضاً، عقد رجالاتٌ كبارٌ اجتماعاتهم، قَدِموا من دمشق وحماة وحلب، ليتحدَّثوا عن مستقبل البلاد ... حكاياتٌ وإشاعاتٌ لم يُلقِ لها بالاً. ما يهمُّه أكثر أنَّه عندما بدأ ببناء عِرْزَالِهِ كان يعمل بهمَّة مئة رجلٍ، مُصغياً لنبضٍ صاخبٍ في قلبه، وقد استمرَّ لأيَّام وهو يجمع العيدان والأغصان؛

كان أهله قد يئسوا منه بعد حادثة المَقَام، وتركوه وحده يفعل ما يشاء، وأخبره أبوه أنَّ عليه الاستعداد للالتحاق بالعمل معه في السهول قرب البحر، لم يجد هذا الأمر سيِّئاً، وبخلاف ما يمكن للأولاد أن يفعلوه، بدأ يُخطِّط لرحلاتٍ طويلةٍ بين الغابات والأحراش، ثمَّ وضع جدولاً لعمله اليوميِّ؛ أوَّلاً: كيف سيصنع سُلَّماً من الحبال حتَّى لا يجرح جِذْع الشجرة؛ ثانياً: كيف يصنع من أغصان الشجر ثلاثة جدرانٍ؛ إذ إنَّ عليه أن يترك الجدار الرابع مفتوحاً ومُطلَّاً على قِمَم الجبال ونهاية البحر.

رآه الأهالي يصعد ويهبط الدروب والمنحدرات، ويختفي في الغابة والأحراش، ثمَّ يعود مُحمَّلاً بأغصان أشجار، بدا لهم رجلاً كبُرَ عشرين سنةً خلال ليلةٍ واحدةٍ، ولم يكن يُقلِّم الأغصان، ويحوِّلها إلى عيدانٍ، لتُشكِّل جداراً مُنتظَماً ومُرتَّباً، ترك الأوراق، ونسجها فيما بينها، الأغصان الرفيعة مع الغليظة، المتوسِّطة مع الكبيرة، شبكها مع بعضها كنسيج الحصير. عمله الأوَّل في جمع الأغصان استغرق نهاراً كاملاً، عاد ووجهه مُثْخَنٌ بالجروح والخدوش، ثمَّ بقي نهارَيْن تحت شجرة السِّنْدِيَانة، وهو يَجدُل الأغصان مع بعضها، يَربِطها ويشدُّها بحبالٍ من القُنَّب المُلقاة بإهمالٍ في بيتهم، وهي تعود إلى سنواتٍ ماضيةٍ عندما كانوا يزرعون التبغ البلديَّ، ويشكُّون أوراقه في مِسَلَّاتٍ حادَّةٍ، ثمَّ يُعلِّقونه داخل بيتهم، وقد احتاج أن يشحذ المِسَلَّات بأحجارٍ حادَّةٍ كسكاكين بعد أن أكلها الصدأ، وأدخل في ثقبها المتطاول الأسطوانيِّ الخيوطَ، وصار يَربِط بين الأشجار على تلك الطريقة التي رأى أُمَّه فيها تَشبِك حُصرهم البلاستيكيَّة المثقوبة بمآبرها.

عندما أنهى الجدار الأوَّل، كان بحاجةٍ لتثبيته بشكلٍ قويٍّ، واستعان بالحبال التي أتى بها من المَقَام، وربط بها أطراف الجدران بفروع الشجرة،

ونظَّف أرض عِرْزَالِهِ، وقد كان أَمْلَسَ وناعماً، ولا يشبه جِذْعها الخشن، ثمَّ وجد أنَّه لن يحتاج سوى لغطاءٍ خفيفٍ في ليالي الثلج، وسوف يأخذ لِحَافه، ولكنَّه كان يتشاركه مع أخيه الأصغر، وكانت هذه عَقَبَةٌ، فشراء أيِّ شيءٍ جديدٍ في بيتهم يتطلَّب خطَّةً طويلة الأمد لتنفيذها، فأجَّل التفكير بمشكلته تلك، واستلقى في حضن الشجرة راضياً، واستيقظ في صباح اليوم التالي وقد امتلأت أصابعه بالثقوب، وكانت نهلة تنظر إليه بإشفاقٍ بينما كان يعمل بلا توقُّفٍ، وتلمح الزَّغَب الخفيف الذي ينمو فوق شَفَتَيْه، وهي تخيط مجموعة أقمشةٍ خضراءَ مباركةٍ، أتت بها من المَقَام، وأضافت إليها ثياباً قديمةً، قُدِّمت في المَقَام للمحتاجين، وقامت بقَصِّها، ووَصَلَتْها ببعضها، وخَاطَتْها بمآبرها، وكان عليٌّ يلمحها بطرف عَيْنَيْه، وهي تستخدم خيوط الملاحف البيضاء، وتصلُ القِطَعَ المتنوِّعة الألوان والأنواع من الكتَّان إلى الصوف إلى القطن، وقِطَعاً من بقايا سراويل الجينز، تصلها راسمة أشكالاً مختلفة الأحجام؛ من مربَّعاتٍ ومثلَّثاتٍ ودوائرَ وزهورٍ وأوراق شجرٍ، وكانت تنتظر أن يُنهيَ عمله، ويغادر إلى الأحراش، فتصعد الشجرة، وتقيس المسافة اللازمة، ثمَّ تُعاوِد خياطة تلك القِطَع بطريقتها الفريدة، حيث تقف، وتُعاوِد الجلوس مع كلِّ غُرْزَةٍ، فكان منظرها يبدو مُضحِكاً للآخرين، وكأنَّها ترقص هبوطاً وصعوداً، ولم تأبهْ لسخريَّة الأب منها، وقد دُهشوا في اليوم الرابع، لأنَّها وما إن نزل عليٌّ عن عَرْزَالِهِ حتَّى صَعِدَت إليه، تحمل وسادته ولِحَافه السميك الذي صار تُحفةً كما يقول الجميع. كانت قد صنعت لوحةً، كما قال لها ابنها الأصغر، وهو الأذكى بينهم كما تصفه! وهذا كان كافياً لتُصدِّق نفسها، وقد صَعِدَ الأخ الصغير العِرْزَالَ، ودُهش من دقَّة صُنْع اللِّحَاف وجماله، ورَغْم أنَّ صغيرها كان فخرها الكبير في الحياة، فلم يمنعها هذا من الصراخ به أن ينزل من الشجرة، قبل أن يعود عليٌّ، بينما هو يُبَرْطِم بأنَّ الشجرة ليست مِلْكَاً له وحده، وكانت

تجيبه بأنَّ مدرسته تكفيه، وأنَّ لكلِّ واحدٍ عالَمه، وعليٌّ لم يُعلِّق بحرفٍ عندما رأى اللِّحَاف، فقد كان واثقاً، ومنذ أن رأى نهلة جالسةً بلا توقُّفٍ تعمل، وتَغرِز مِئْبَرَها في قِطَع القماش مُحرِّكةً يَدَيْها بحركاتٍ بهلوانيَّة مع خيطانها البيضاء، وأمامها كومةٌ من ثيابِ رَثَّةٍ أعادت غسلها، ثمَّ نشرتْها بين أغصان الأشجار، كان يعرف أنَّها تفعل شيئاً لأجله، وفي مساء اليوم التالي، طلب منها أن تصعد لترى السماء من عِرْزَالِهِ، وكانت الوحيدة المسموح لها بذلك، وحين صَعِدَتْ معه، وجلست قربه، لم تبكِ كعادتها! ابتسمت بوَهْنٍ، وبقيت تراقب غروب الشمس دون أن تَنْبِسَ بحرفٍ واحدٍ، وحين تركتْهُ، قرَّرت أنَّ الأوان مناسبٌ، لتُحدِّث الشيخ في أمره، وتعدَّه ليتعلَّم علوم دِيْنه، ويخدم المَقَام خلال السنوات القادمة، فقد طلب منها، وبعد نَذْرها وزيارتهما الأخيرة للمَقَام البعيد أن تفعل ذلك، لقد قرَّر أن يسلك درب صاحب الصورة، وَليُّهُ المُحبَّب ذي السَّحْنَة المهمومة!

كان عليٌّ يستلقي في عِرْزَالِهِ، ويطيب له إغماض عَيْنَيْه المغمورتَيْن بالضوء، لا يبدو أنَّه يَحفِل بتلك المشاعر الغنائيَّة التي يمكن التفكير فيها عن ولدٍ، يستعذب العلاقة مع عناصر الطبيعة، فهو لا يعرف عن هذا شيئاً، كان جِلْده خشناً على ذلك، وروحه تشبه صخور جبله، لكنَّه كان يستطيع إغماض عَيْنَيْه ببساطةٍ، وهو يُخاتِل تلك القفزات المتناثرة للضوء حين يتسرَّب بين الأغصان والأشجار، فيحرِّك رأسه لاحقاً إيَّاها مثل كلبٍ يلتقط عَظْمَةً، ولا ينفكُّ يضحك، وكانت نهلة تسمع صوت ضحكاته، وتبكي على ابنها غريب الأطوار، فأيُّ عاقلٍ يلعب مع الضوء! وهو لم يفهم سبب انزعاجها من ألعابه مع الضوء وحركة الريح بين الأغصان، وقد أجبرتْهُ أن يحمل (كَتَيْبَة) فوق قلبه، علَّقتها بحبلِ قُنَّبٍ، يتدلَّى من رقبته،

كانت تعويذتها تلك مُغلَّفةً بقماشٍ أخضرَ مُباركٍ من المَقَام، ويُغلِّف القماش لِفَافَة ورقٍ صغيرةٌ، عليها كتابةٌ ما بحبرٍ أزرقَ وكلامٌ لا تفهمه! كان يفتح عَيْنَيْه على وسعهما، ويتخيَّل أشجار تلك الجبال تركض كقطعان ماعزٍ، تتسلَّق القِمَم، وكان يرى جذورها، وقد اقتُلعت من الأرض، وجرَّت وراءها صخوراً عملاقة الجذور، تحوَّلت إلى أصابع مثل أصابعه، تمشي وتركض، وهو فوق شجرته التي تمشي به مع قطيعها الشجريِّ، ولم يُخبر أحداً بسرِّه ذاك، وبأنَّه قاد جيشاً من الأشجار تهرول، وتركض صاعدةً نحو السماء، وكان يراها، وكأنَّه يجلس فوق إحدى غيومه، يراها تركض ... وتركض مع جذوعها الضخمة المنفلتة وألوانها المضيئة بالأخضر الفضِّيِّ والأخضر الفيروزيِّ، وكانت تلك القطعان الضخمة من الأشجار لا تلتفت خلفها، تصعد ... وتصعد، ولا تصل قمَّة الجبال، حيث لا تقترب من السماء مهما حاولت.

الآن، وقد اقترب من الشجرة، والشمس تلامس قمَّة الجبل المُواجه هابطةً نحو البحر ممَّا يسمح له برؤية جِذْعها بوضوحٍ، تذكَّر ابتسامته فوق عِرْزَالِهِ وجيش الأشجار ذاك، ومن خلال رؤيته التي تضعف تذكَّر أنَّه يوجد مكانٌ كي يستلقيَ فيه، يشبه مكان عِرْزَالِهِ، فالشجرة هذه ترتفع نحو الأعلى، ونوعها لا يبدو، تماماً، مثل نوع سِنْدِيَانته، وتبدو أصغر عُمُراً، كان يستطيع تقدير عُمُر الأشجار وتاريخها وأنواعها، أمَّا مِنْ أين أتت له هذه المعرفة؟! فأهل القرية يردِّدون أنَّ الحْمَيْرُوْنَة منحتْهُ أسرارها، وعدا عن تلك الأقاويل، فقد لَمَسَ بيده كلَّ ما رآه في الغابة والأحراش، لَمَسَه، والتصق به، وكبر معه، وعرف ما لا تعرفه سوى الحيوانات البرِّيَّة عن حركة النبات والأشجار في الغابة.

يحاول الآن أن يزحف مُستخدِماً كوعَيْهِ في كلِّ مرَّة، ويُحدِّق في الأرض تحته مشتاقاً لِعِرْزَالِهِ، ويتذكَّر كيف صَعِدَتْ إليه نهلة في الليلة التي دفنوا فيها أخاه الكبير، وكيف بقي هو أسفل الجِذْع حارساً لها، يراقبها جالسةً، لا تسند ظَهْرها، وتضمُّ ركبتَيْها إلى صدرها، وتتكوَّر مثل قُنْفُذٍ، وكان يغفو قليلاً، ثمَّ يصحو يراقبها، ويلمح ظَهْرها. كان في أسفل جِذْع الشجرة يقف متسمِّراً، لا يجرؤ على الحركة مُحدِّقاً بعَيْنَيْه الناشفتَيْن حتَّى يغفو ثانيةً. في الصباح أيقظتْهُ بلمسةٍ منها، ثمَّ دخلت البيت، وصَعِد عِرْزَالَهُ، وبقي هناك يراقب السماء، وكان لِحَافه الأثير مُكوَّماً، وكما تركه على حاله ليلة البارحة. شعر بالبرودة، وفكَّر بنهلة التي بقيت في الليل ساهرةً دون غطاءٍ، وهو يفكِّر فيها الآن، ويطول الوقت بينما يحاول الزحف بكوعيْهِ، وتلوح أمام عَيْنَيْه الأغصان المتشابكة لسقف الشجرة وأوراقها المُفصَّصة، ربَّما يحاول نزع بُوطِهِ العسكريِّ، وربط جرحه الذي لم يكن جرحاً فقط، لكنَّه لم يكن يعرف، ولن يعرف، وربَّما كان هذا من حسن حظِّه أنَّه لم يستطع الجلوس وفَكَّ حذائِهِ، فَدَفَن وجهه في الأرض، وزفر بقوَّةٍ، وابتلع تراباً، ثمَّ بصقه، وخطرت على ذهنه ضِبَاع الغابة التي خَبِر أصواتها فوق العِرْزَالِ، وكان يراقبها، ويُلقي بأكوام حطبٍ، يُشعل فيها النيران، لتهرب، وعندما فكَّر بأنَّه سيموت، رأى نهلة تصعد عِرْزَالَهُ، وتبقى ساهرةً وحيدةً مع البرد، كما فعلت عندما دُفن ابنها الأوَّل، فجاءته قوَّةٌ ما في اللحظة التي استعاد فيها صورة انحناء ظَهْرها، كانت من النحول، بحيث إنَّ ظَهْرها يبدو كقوسٍ مُنحنٍ مثل نصف دائرةٍ، ويذكر أنَّها كانت ترتدي سترةً سوداءَ من الصوف، وقد لَفَّت وجهها ورأسها بمنديلٍ أبيض، ويعرف أنَّ خَدَّيْها كانا مُشقَّقَيْن، وأنَّها تُتَأْتِئُ عندما تتكلَّم بسبب خجلها من أسنانها التي تكسَّرت حين سقطت في المنحدر القريب، وأنقذتْها أغصان الشجر من السقوط في هاوية الوادي، وهو يتذكَّر تلك الأسنان الآن، واصطكاكها عندما تغضب،

وكانت عيناه تنوسان، ورأى أغصان عِرْزَالِهِ المتشابكة قريبةً تدور حول رأسه، كما لم يرها قبلاً، وقد كانت جميلةً، وتُشعِره بالرضا لجودة عمله، حتَّى إنَّ جارهم قال إنَّها مصنوعةٌ بمهارةٍ، وإنَّه فنَّانٌ، ويذكر أنَّه ضحك في سرِّه، ولم يلتفت لجملة جاره تلك. يرى نفسه ذلك الولد، هو نفسه الذي يدور الآن مع الأغصان، ورأى، أيضاً، اللِّحَاف يطير، ويرقص مع الريح، وافتخر بأُمِّه التي تَمْلُك أصابع من ذهبٍ، كما تقول الجارات، ثمَّ مَدَّ يده ليُمسك اللِّحَاف، فأمسك الفراغ، وانقلب على بطنه، وصار ظَهْره مفتوحاً على السماء، وصرخ بوَهْنٍ، فقد ظهر له مكانٌ جديدٌ لألمه عند أُذُنه اليسرى، وعرف أنَّه مصابٌ في مكانٍ آخرَ، لكنَّ صورة العِرْزَالِ والشجرة صارت قريبةً وواضحةً، بما لا يقبل الشكَّ، فدفع بنفسه، وهناك مع تلك الدفعة التي قذفت به إلى الأمام ظهر خيال العِرْزَالِ كاملاً، كما عرفه لسنواتٍ، مُزيَّناً بالنباتات وأُصُص التنك التي ملأتْها نهلة بالحَبَق والزعتر، وظهرت حبال القُنَّب المُتدلِّية التي علَّقها بين أغصان الشجر المتشابكة كحصيرةٍ، والتي كانت تحمل صخوراً غريبة الشكل، جمعَها من الغابة، تتدلَّى وتتأرجح، وتُصدِر أصواتاً موسيقيةً مع ارتطامها بفعل الريح، وقبل أن يُطبِق عَيْنَيْه، لمح، من جديدٍ، ظَهْر نهلة مُقوَّساً ومرتجفاً، وتذكَّر حينها أنَّ الانخفاض والارتفاع المتواتر لحركة عمودها الفِقْرِيِّ كانا شهقاتٍ مكتومةٍ، لقد كانت ومع حركة شهقاتها وظَهْرها يَمِسُّ جدار العِرْزَالِ ببطءٍ وخفَّةٍ، ومع كلِّ مرَّة يَمِسُّ ظَهْرها الجدار كانت الأوراق اليابسة تُخَشْخِشُ، كما تفعل الآن الأوراق من حوله عندما يحاول التحرُّك.

ظَهْر نهلة المقوَّس كان آخر ما يذكره قبل أن يَفقِد وعيه. السماء البرتقاليَّة تميل إلى الاختفاء، وبدت له الشجرة كخيالٍ أسودَ، وهو بحاجةٍ لعدَّة دفعاتٍ، كي يَلْمِسَ جِذْعها، وعليه أن يصعد إليها قبل أن يحلَّ سواد الليل الذي خَبِره. لن يَخذُله ضوء القمر، وسيُعينُه في رؤية ظلال الأشياء. لم يأتِ القمر بعد، لا يراه، لكنَّه في مكانٍ ما! في هذا اليوم من الشهر سيكون أمامه بدراً مكتملاً!

رفع رأسه، وبحث عن الآخر، قَرِينِهِ؟ عَدُوِّه؟ أصبح قريباً منه إلى الدرجة التي جعلت شكله واضحاً. إنَّه رأس رجلٍ، ويستطيع أن يشمَّ خوف هذا الرجل! إنَّه خائف منه!

كيف واتتْهُ القوَّة؟ كيف شَهَقَ الآن، وعاد للحياة؟

يرى نهلة!

إنَّها هنا تقف تحت الشجرة، وتنحني وتمدُّ اليد ذاتها إلى اللِّحَاف الذي صنعتْهُ بضوء عَيْنَيْها.

بقيت نهلة في ليلة دَفْن ابنها جالسةً، تَشهَق بلا دموعٍ، تتنفَّس ببطءٍ، وقد ربطت عَيْنَيْها بقماشٍ، ولم تبكِ من ساعتها، توقَّفت عن الغضب، كان يَعرِف عنها ما لا تَعرِفه عن نفسها، ثمَّ إنَّها باحت له بالكثير، كما فعلت الحْمَيْرُوْنَة. تزوَّجت نهلة وهي في العشرين من عُمُرها، وكانت يوماً ما

صبيَّةً متوسِّطة الجمال، وهي الرَّقْم سبعة بين عشرة أخوةٍ، نزلوا من الجبال، ليعملوا في الأراضي السهليَّة، بعد أن توقَّف أبوها عن زراعة التبغ، وتشرَّد أُخوتها في كلِّ مكانٍ، وهاجر نصف سكَّان القرية، وتوزَّعوا بين عدَّة مُدُن، وكُثر منهم سكنوا في ضواحي دمشق أو هاجروا للعمل في لبنان، ومَنْ بقي منهم عملوا كأُجراء في القرى القريبة من البحر، حيث حلَّت زراعة أنواعٍ جديدةٍ من التبغ في السهول عوضاً عن زراعة التبغ البلديِّ في الجبل.

كانت نهلة تنزل إلى السهول، لتعمل في حقول التبغ الجديدة من الفرجينيا والبرلك، يخرجون فجراً، ويعودون مع غروب الشمس، لم يُقدَّر لنهلة ذات الجسد النحيل والعود الرقيق أن تعرف الحبَّ، ولم تفكِّر سوى بالسعادة التي غمرتْها عندما تقدَّم منها رجلٌ يكبرها بخمس عشرة سنةً، ويعمل أجيراً مثلها في تلك السهول، وقال لها إنَّه يريد الزواج منها، ظنَّت أنَّ تلك هي نهاية العالَم الشقيِّ، وعندما تزوَّجتْهُ عرفت فقره الأسود. أنجبت منه ستَّة أولادٍ، مات أحدهم بعد ولادته بأشهرٍ، كان الله مَنْ يهبها عطاياه تلك كلَّها؛ أولادها، ولم تكن تتجرَّأ على التذمُّر من عطايا الله، وزوجها الذي كان يعمل كثورٍ كما تقول عنه، عيَّرها بأنَّه لو لم يتزوَّجها، لبقيت تعمل أجيرةً عند الناس، وكانت تسخر منه بِزَمِّ شَفَتَيْها ولَيِّ رقبتها وإشاحة النظر عنه، ولم تتغيَّر حياتها سوى أنَّ بطنها كان ينتفخ، وكان عليها العناية بأكوام اللحم التي وجَدتْها في بيتها وهي تردِّد، "الله العاطي"، وأكوامُ اللحم تلك التي ربَّتْها كما تقول بلحمها ودمها، كانت بهجتها الدفينة، كانت تعتقد لو أنَّها عبَّرت عن فرحتها برؤية صغارها يكبرون أمامها، فإنَّ ذلك سيكون مَدعاةً للنحس والفأل السيِّئ. لقد سارت الأمور على ما يرام كما ظنَّت، فابنها الكبير قد حصل على شهادة البكالوريا

بتقديرٍ جيِّد، وبما أنَّهم لم يَملُكوا المال لإرساله إلى الجامعة، فقد كان تطوُّعه في الجيش أمراً جعلها فخورةً، فابنها سيعيش في العاصمة، وسيرى من الدنيا ما لَمْ تَرَهُ، وابنها الأوسط عليّ، رَغْم غرابته، لكنَّها اعتقدت أنَّه سيكون رجل دِيْنٍ تقيَّاً، وهذا أرضاها إلى حَدِّ أنَّها خصَّتْهُ بعنايةٍ مقدَّسةٍ، أمَّا الأصغر المجتهد، فقد كان بهجتها في الحياة! سوف يُكمِل دراسته الجامعيَّة، وسوف يتكفَّل أخوه المتطوِّع في الجيش بمساعدتهم في تحمُّل نفقات الأيَّام القادمة، زوَّجت ابنةً قبل أن تبلغ السابعة عشر، والأخرى ما تزال تدرس، ويبدو أنَّها ستسلك طريق أخيها المجتهد، وتريدها أن تصير طبيبةً مثل بعض فتيات القرية، لن تعيش حياتها البغيضة. سترسل ابنتها إلى العاصمة عند أخيها لتدرس! كانت قد خطَّطت لذلك، ورتَّبت حياة أولادها في عقلها، كانت واثقةً أنَّهم - ورَغْم فقرهم - قادرون على أن يكونوا أولاداً صالحين، وهي ما تزال قويَّةً، وسوف تنزل السهول مع زوجها، وتستمرُّ بالعمل. عالَم منظَّمٌ في رأسها، قاسٍ وجافٌّ، ولكنَّه كافٍ بالنسبة إليها؛ لا يعنيها أيُّ أمرٍ آخرَ.

كانت تعمل بلا توقُّفٍ، ويُطلِقون عليها اسم "كْدِيْشِة شِغِلْ"، وكانت سُمعتها تسبقها، فهي، وكما يقولون عنها، لا ترفع ظَهْرها من الفجر وحتَّى الظُّهْر، تُمسِك بالمِجْرَفَة، وتبدأ العمل، وتَنكُش الأرض، وعندما كانت تعمل في سهول التبغ، تراها تعمل صامتةً حتَّى في الوقت المخصَّص لتناوُل الطعام، كان الشغِّيلة الآخرون يتوقَّفون عن العمل ويأكلون، أمَّا هي، فتمضغ لِفافة خبز رقيقةً من الزيت والملح، وتُكمِل شَكَّ أوراق التبغ غير مُهتمَّةٍ بالنظرات العدائيَّة للشغِّيلة الذين كانوا يشعرون بإحراجٍ وهم يراقبونها تعمل بلا توقُّفٍ، كان عليها أن تَكِدَّ ... وتَكِدَّ؛ علَّها تضع فائضاً من المال يُجيرها في حال توقَّف العمل، وهذا المال الفائض لم تحصُل عليه

أبداً، كانت وزوجها يحصُلان على ما يكفي لسدِّ قرقرة بطون أكوام اللحم. يذكرها عليٌّ في الفجر تعدُّ لفائف الخبز المغمَّسة بالزيت والزعتر قبل ذهابهم إلى المدرسة، وتُنظِّف حول البيت بِمِكْنَسَة القشِّ التي صنعتْها بيدها، كانت رائحة البيت ونظافته أمراً أساسيَّاً، بالنسبة إليها، ويذكر عليٌّ أنَّ ثيابهم العتيقة تبقى مُضمَّخة برائحة الغار والزعتر البرِّيِّ.

عندما كان أولادها صغاراً، كان من عادة زوجها أن يضربها أمامهم، وبعد أن كبروا صار يضربها سرَّاً، فقد عَضَّهُ عليٌّ في إحدى المرَّات وهو يضرب أُمَّه. عَضَّهُ ولَكَمَهُ أيضاً! ورَغْم أنَّه بعد فعلته تلك بقي مربوطاً بجِذْع الشجرة، ونال نصيبه من لسعات عصا الرمَّان، فقد أصاب أبوه الحذر والحيطة، ولم يجرؤ على ضربها ثانية أمامه!

يذكر عليٌّ بعد الجنازة وليلة العِرْزَالِ؛ أنَّ نهلة توقَّفت عن العمل في السهول، وأنَّ أباه توقَّف عن الصراخ، وأُخته الأرملة توقَّفت عن النحيب والعويل، يذكر أنَّ صمتاً لَفَّ البيت، وأنَّ نهلة فعلت ما لا يمكن تصوُّره، فقد زرعت المنحدر الصخريَّ أسفل بيتهم، بعد أن حوَّلتْهُ إلى مدرَّجٍ صغيرٍ، وكان هذا يحتاج لعمل رجالٍ! كانت تَطرُق الصخر، وتُفتِّت الحجر بفأسٍ ثقيلٍ، وتبني المدرَّج! وكانت تسرح في حواري القرية، تلمُّ فوارغ التَّنَك المعدنيَّة، وتملؤها بالتراب، وتزرعها بأنواع النباتات والزهور، كانت تقتلع النباتات البرِّيَّة مِن جذورها في الغابة، وتنقلها إلى أُصُصها العجيبة تلك، وتُسوِّر البيت بها، خلال أشهرٍ، تحوَّل بيتهم إلى ما يشبه المزرعة المليئة بأنواع النباتات كلِّها، ويذكر أنَّها نقلت التراب من أراضي الجيران، وأفرغتْهُ في المدرَّج، وكان مبتهجاً وهو يراقبها، تنقل التراب، وتصنع مساكبَ من البقدونس والنعناع والفجل والبصل والفليفلة، زرعت بذور التفَّاح،

وحوَّلتْها إلى غرساتٍ، ثمَّ نقلتْها، وغرستْها على جانبَي الدرب المؤدِّي إلى بيتهم.

لم تزرْ نهلة قبرَ ابنها قطُّ، ورفضت الذهاب مع نساء القرية لزيارة قبور أبنائهنَّ، كنَّ يَحْثِثْنَهَا على فعل ذلك، وتوقَّفنَ بعد أن طردتهنَّ في أحد الأيَّام، ورمت بأغصان الآس التي يحملْنَها في الأرض. لا يذكر عليٌّ رنَّة صوتها بعد موت أخيه. ستُوجِّه جملةً وحيدةً لأبيه، عندما يعود وحيداً من السهول، ويُخبرها أنَّ دوريَّةً أمسكت بعليٍّ، وأخذوه للجيش، ستصرخ به: "الله يِغْضَبْ عليكْ، كَانْ لَازِمْ تِقْتِلْهِن كِلْهِن قَبِلْ مَا يَاخْدُوْه"، ثمَّ ستُعاود صمتها، وستمنعه من ضربها، ولن يجرؤ على فعل ذلك مجدَّداً، كان يتظاهر أمام الآخرين بقوَّته وسطوته عليها، وبعد موت ابنه البِكْر صار يبكي تحت قَدَمَيْها، راجياً منها أن تُكلِّمه، فتقف صامتةً مثل تمثالٍ حجريٍّ، وتُشيح النظر عنه!

يذكرها جيِّداً ... نهلة النحيلة المتوثِّبة! ثمَّ يلوح له البياض، لونها المفضَّل، في أيَّامه الأخيرة هناك، وهو إلى جانبها يتحرَّك حولها مثل ظلِّها، يساعدها وهي تدهن البيت بالكلس الأبيض، تَحُفُّ الجدران بقوَّةٍ، وتُعيد طلاءها من الداخل والخارج، ثمَّ تدهن أواني الزرع والتَّنَك، تدهن الأحجار الصغيرة التي رصفتْها على جانبَي الطريق، لتصنع درباً لبيتها. كانت تشير له بيدها، وتكلِّمه بأصابعها، وتُتَمْتِم دون أن توجِّه الحديث إليه؛ بأنَّ هذا البياض سيكون قريباً من أرواح الأولياء الصالحين، وسيدلُّ روح ابنها إليها، وعندما يحاول عليٌّ أن يكلِّمها تتجاهله، ولا تنظر إليه. يفكِّر بأصابعها البيضاء وأصابعه، وهما يعملان بتناغمٍ، وكان أُخوته يراقبونهما بصمتٍ. تحوَّل الصمت إلى جزءٍ من حيواتهم، ويستطيع عليٌّ تذكُّر تلك اللحظات،

وأُمُّه تغسل الجدران الداخليَّة للبيت، ثمَّ تُعيد طلاءها من جديدٍ بالكلس وهكذا ... فعلت ذلك مرَّات عدَّة، ولم يجرؤ أحدٌ على إيقافها، يذكر عليٌّ أنَّها قضت الكثير من الوقت تحت أغصان شجرته مُحدِّقةً في السماء، وكانت قد بدأت عادةً جديدةً؛ تنظِّف عِرْزَالَهُ، وتجمع المزيد من الأحجار الغريبة، وتَربِطها بخيوط القُنَّب وعيدان الجدار الخشبيِّ للعِرْزَالِ، ثمَّ تغيب في الجبل، وتعود بنباتاتها المتنوِّعة، وتطهوها لأولادها، وقبل أن يمسكوا به في ذلك اليوم الذي دعَتْ فيه على زوجها بغضب الله، كانت قد زرعت ما يجعلها تستغني عن شراء الخضار، وقد ساعدها عليٌّ في حفر الأرض، وقَصَّ معها شرائح البلاستيك التي صنعت منها دَفِيْئَاتٍ، لتحميَ نباتاتها من البرد، كانوا يسمُّونها في السهول بيوتاً بلاستيكيَّةً، يزرعون فيها الخضروات، نهلة صنعت العشرات منها بأحجامٍ صغيرةٍ، وكلُّ بيتٍ بلاستيكيٍّ، كان يشكِّل درجةً من الدرجات التي حفرتْها في الجبل، وملأتْها بالتراب، ونوَّعت فيها الخضار، وقد سُرَّ زوجها بذلك، فقد جعلتْهُم الحرب جياعاً، ثمَّ بدأت قامتها تتغيَّر بين يومٍ وآخر، ورأى عليٌّ كيف صار ظَهْرها مختلفاً وهو ينحني ويتقوَّس، بدت له هَرِمَةً أكثر من الحْمَيْرُوْنَة نفسها التي كان يقول إنَّ عُمُرها بعُمُر الأشجار!

تَمثُل الآن أمامه، يراها بوضوحٍ، تضع يَدَيْها حول خصرها، ومِئْزَرُهَا مُلوَّثٌ بالكلس الأبيض، ثمَّ تحمل غَرسةً ما، لا يرى سوى نصفها العلويِّ يتحرَّك أمامه، وشمَّ رائحة الزعتر البرِّيَّ الذي تستخدمه في طهيها، كانت تَخلِط الأعشاب، وتخرج بوجبات طعامٍ مُبتكَرةٍ، وكانوا يلتهمونها بنَهَمٍ، وفي أحد الصباحات، وجدوها تبني تنُّوراً جانب الشجرة، ثمَّ اشترت الطحين بثمن الخضراوات والنباتات التي كانت تبيعها، وصارت تعدُّ خبزهم بنفسها، لقد استغنت عن العالَم الخارجيِّ! وعليٌّ لم يقف مراقِباً تحوُّلاتها كما يفعل

أُخوته، كان يقلِّد حركة يَدَيْها، وتنقُّلاتها وما تفعله، فيفعل مثلها، لم يكن بحاجةٍ للتحدُّث معها، ولم تمضِ عدَّة أيَّام حتَّى تناغما في حركة العمل، يرافقهما الصمت الطويل! وهي الآن تظهر بخيالها، وتُحدِّق به تلك التحديقة المتواطئة على فعل الحركة التالية التي يجب عليه القيام بها، ونصفها الذي يلوح له تحت الشجرة المنشودة طار وغرس شَتْلَة زعترٍ برِّيٍّ في صخرةٍ، وكانت الصخرة تطير معها. أشارت إليه بيدها البيضاء الكلسيَّة كي يتقدَّم، وهي تنثر أوراق الزعتر، فينتشر عطرها، ويدفع بنفسه نحوها، ونهلة لا تتكلَّم، لو أنَّها تتحدَّث فقط! لو تقول أيَّ شيءٍ! يُغمِض عَيْنَيْه، محاوِلاً استحضارها قبل موت أخيه، لكنَّ صورتها بقيت ثابتةً على تلك القفزات والحركات البهلوانيَّة، صرامة قسمات وجهها، وعيناها الجامدتان، العينان رآهما وهو يدفع بجسده، رَغْم أنَّ الظلام قد حلَّ تقريباً، رأى فراغهما، ورأى أصابعها البيضاء تَدهُن جدران البيت، وأصابعها عندما أمسكت بحوافِّ التابوت، وعرف أنَّه يراها بعقله، وليس بعَيْنَيْه، وفَهِمَ أنَّها تشير إليه أن يتقدَّم! فيرمي بجِذْعه، ويصبح على بُعْد مترٍ واحدٍ من الشجرة، ويتنهَّد، ويُغمِض عَيْنَيْه، ليراها بوضوحٍ، وتبتسم له كما كانت تفعل قبل موت أخيه، ثمَّ فكَّر أنَّه حتَّى لو لم ينجح ويبقى على قيد الحياة، فعلى الأقلِّ، عليه أن يفيَ بوعده لنفسه، وأن يُبقَيَ جسده كاملاً حتَّى يتسنَّى لنهلة رؤيته ووداعه، وحتَّى لا يفعلوا بها كما فعلوا عند دَفْن أخيه؛ يدفع بنفسه مُلاحِقاً خيالها، وقبل أن يَفقِد وعيه من جديدٍ، عرف أنَّ ذلك الإغماء الذي يأتيه بين حينٍ وآخرَ، ربَّما يصير أبديَّاً، وفي هذه الاندفاعة التي همَّ بها واثقاً، ارتطم رأسه بجِذْع الشجرة، وسمع خبطةً ما على الطرف المقابل، كان رأس الكائن قد ارتطم بالجِذْع أيضاً، ولم يقاوم الغياب عن الوعي.

كان وهو يُغمِض عَيْنَيْه يعرف أنَّ هذا الكائن لن يقوم بقَتْله.

البذرة السوداء تُعاوِد الرقص أمامه! العمياء تلك! نقطة الكراهية التي عرفها عندما داسوا عليه!

أيَّة سكينةٍ يبغي الآن؟ وكلُّ ما يأتيه من ذكرياتٍ وهواجسَ يبتليه بمعرفته لنفسه!

إنَّه لا ينسى ذلك اليوم!

أمام البوَّابة الحديديَّة التي تُفتَح أوتوماتيكيَّاً، سيقول له الشيخ العجوز إنَّ كلَّ شيءٍ هنا يُفتَح ويُدار عن طريق غرفةٍ، فيها شاشاتٌ لكاميرات مراقبة، وكلّ ما يُعمَل في القصر يُدار عبرها، حتَّى إغلاق النوافذ وسقاية الأشجار والنباتات! سيقول له إنَّه سيرى شيئاً لم يرهُ من قبل! شيء يسمُّونه تكنولوجيا، يديرها ويحتكرها كمبيوترٌ صغيرٌ، يُشرف عليه مهندسٌ مختصٌّ. كان يلِجُ البوَّابة مرتعشاً أقلَّ من ارتعاشه الآن وهو يحلم بالطيران نحو غصن الشجرة، كان مع الشيخ العجوز المنهمك بالشرح والتفسير له، بينما ينظر مذهولاً بما يراه! يا الله! هذا القصر الذي كان يحتاج إلى نحو عشر دقائق، ليصل إليه مشياً على الأقدام، وكان قد نسيه، ولا يراه إلَّا من الخارج، لم يفكِّر فيه حتَّى! القصر شيءٌ غير قابلٍ للتفسير، مُحاط بالخوف، والهيبة، والغموض، والقوَّة أيضاً، ما الذي حلَّ حتَّى فتحوا أبواب قصرهم له، ولغيره من أهالي القرية؟ لِمَ لا يتوقَّفون عن نُذُورهم هذه؟! وأين كانوا؟ ومَنْ هم؟

يذكر عليٌّ أنَّه كان يمشي مع الشيخ العجوز وهم يستعدُّون لأداء طقوس عيد الغدير، عيد الرحمة؛ يوم أخذ النبيُّ محمَّد بيد ابن عمِّه عليٍّ، فرفعها مردِّداً: "مَنْ كُنتُ مَولاهُ، فَعَلِيٌّ مَولاهُ"؛ هكذا علَّمه شيخُهُ، وشيخُهُ هذا الذي أصرَّ عليه لحضور العيد، بعد أن صارا لا يفترقان، كان يرى تفتُّح روح عليٍّ، ويَلمِس إيمانه، ويراقبه وهو يكبر، ويُبدي سلوكاً لم يعهده في شباب هذه الأيَّام، ويطيب لعليٍّ أن يفكِّر بشيخ القرية على أنَّه من ذلك النوع المحبَّب الذي اتَّخذه وَلِيّاً منذ صِغَره؛ وَلِيَّهُ المحبَّب في لوحة الأولياء.

كان العالَم الذي رآه حينها باهراً، لم يفكِّر بوجوده حتَّى في أحلامه! لا يمكن تصديق روعته إلَّا بوصفه أنَّه غير حقيقيٍّ. الأشجار تتوزَّع حول البناء الضخم، أشجارٌ غريبةٌ لم يرها من قبل، منها القزمة والضخمة، وعرف أنَّها يابانيَّةٌ واستوائيَّةٌ بأشكالٍ وأحجامٍ متنوِّعةٍ، ورأى ثلاث نخلاتٍ عالياتٍ! متى نما هذا النخل هنا؟ قال له الشيخ إن (الزين) أتى بها كما هي، هكذا نقلها إلى قصر أبيه! وغصَّ عليٌّ وهو يتخيَّل الأمر؛ النخلات الثلاث المُقتَلَعَات ممدَّداتٌ كجثثٍ! وانقبض وهو يراقب ارتفاع جذوعها التي انعكست صورتها على جدار بناء زجاجيٌّ عريضٌ، يبدو أنَّه مصنوعٌ من مادَّةٍ قويَّةٍ. جدار لا يخترقه كائنٌ حَيٌّ! الضوء فقط يغلبه، يقول لنفسه ذلك، ويضغط بشَفَتَيْه حتَّى لا يُصفِّر أو يبدو عليه انفعالٌ ما، فقد بدأ يسيطر على انفعالاته، كجزءٍ من تمارينه على عالَمه المُقبل مع شيخه.

كانت صورة عليٍّ تتغيَّر في أعين أهل القرية، إذ بدا لهم غريب الأطوار فعلاً، لكنْ، فيه شيءٌ من السماحة والعقل، وذلك التهذيب الحكيم الذي بدا لهم في أوقات الحرب ضرباً من الجنون، حيث كان الشِّجَار والصُّراخ والحقد يندلع بين الناس على أتْفهِ الأسباب، خِلافَ عليٍّ الذي ازداد هدوءاً

وصبراً، كما يقول الشيخ، وكان يحافظ مع الشيخ على نبرةٍ في الحوار غريبةٍ، وهي ليست حواراً، بل إصغاء، وبدأ الرجال ينظرون إليه بتقديرٍ، فقد اصطفاه الشيخ، ليخدم المَقَام، ولم يكن مهمَّاً أن يكون خادم المَقَام رجل عِلْمٍ ودِيْنٍ، سوف تكون خطوة عليٍّ الأولى هذه، ليستحوذ على قلب الشيخ، ويدفعه لتعليمه أصول دِيْنه. كان شيخ القرية العجوز واحداً من رجال الدِّيْن القلائل الذين بقوا في تلك الجبال، ينشرون علوم دِيْنهم كجزءٍ من استمرار علاقتهم مع الطبيعة والوجود، بالطريقة التي عاش بها أجدادهم، كان له احترامٌ في نفوس أهل القرية، كان يُزوِّجهم، ويُطلِّقهم، ويَحُلُّ مشكلاتهم، ويعودون إليه لمداراة آلامهم، لم يكن بخيلاً، كان شبه فقيرٍ، ويتعرَّض لسخريَّة أولئك المشايخ الذين ظهروا منذ عقودٍ، وقد كسب سُمعته واحترامه على مدىً طويلٍ، إذ كان يعتقد أنَّه مسؤولٌ عن كلِّ واحدٍ منهم، ورَغْم أنَّه وكثيرٌ من المشايخ أمثاله قد فَقَدُوا سلطتهم الروحيَّة والاجتماعيَّة بين الناس، وهذه السلطة كانت قد انتقلت إلى المشايخ الجُدد من أمثال شيخ (الزين)، إلَّا أنَّ احترامهم وتقدير نَسَبهم الدِّيْنيِّ وتاريخ عائلاتهم لم يُنْسَ نهائياً! كان يقول له؛ أرواح المؤمنين سوف ترتقي في حيواتها المتوالية حتَّى تبلغ نورها الكبير، وإنَّ عليَّاً سيُحيط، قريباً، بعلوم الدِّيْن، وسوف يأتي الوقت المناسب، ليعرف كيف يكون صالحاً في الحياة، وكيف يكون في خدمة الخير. "الله في قَلْبكَ، يا عليّ! الله في كلِّ مكانٍ"، يردِّد جملته تلك أمام عليٍّ، ببساطةٍ كان الشيخ قد امتلك عوالم عليٍّ، لذلك يومها لم يعترض عندما طلب منه شيخه أن يرافقَهُ في عيد الغدير إلى القصر، قصر (الزين) الذي كان قد حضَّر نَذْرَهُ، وجلب رجاله خَرُوفَيْن وعِجْلَيْن، وجاء بشيخه الخاصِّ، وكان يُسمِّيه عليٌّ بالشيخ الجديد، كان شيخ عليٍّ العجوز يقول له إنَّه، في النهاية، سوف نقوم بإطعام الفقراء، كان لديه مَنْطِقَهُ الذي لم يكن يفهمه، دائماً، عليٌّ، كان يقول له ليبحث كلُّ

منَّا عمَّا يريده، يريد هو السلطة! هل نحن ربّهُ لنحاسبه؟ سيأتيه حسابه! ونحن ما الذي نريده في هذا الوقت العصيب؟ نحن نريد إطعام المساكين هؤلاء! وصَمَتَ عمَّا يقوله شيخه. ولكنَّه وهو يرى قصر (الزين) نبتت تلك البذرة السوداء التي كبرت بعد ذلك اليوم، وصارت بحجم حبَّة الحُمُّص، واستقرَّت في قلبه، ثمَّ رأى انعكاس السماء الزرقاء والغيوم في المسبح العريض والأشجار والنباتات الغريبة والزهور الملوَّنة، ورأى رجالًا كثيرين يتحرَّكون، ويحملون الأسلحة، وفكَّر أنَّ ذلك يشبه قصصاً خرافيَّةً عن قصور وسلاطين، سمع عنهم من الحْمَيْرُوْنَة. هناك قبَّةٌ تتوسَّط القصر، تلمع تحت الشمس، القبَّة بهرتْهُ! كانت أجمل ممَّا يُحتمَل! وقد حوَّلتْها الشمس إلى كرةٍ ملتهبةٍ بألوانٍ وزخارفَ ورسومٍ، يغلب عليها اللون الأزرق، ورأى أخيراً وجه (الزين) وهو يظهر مع شيخه الذي يمشي وراءه، ويُحيِّيان الشيخ العجوز. كان يعرف أنَّ غالبيَّة أهل القرية لا يحبُّونه، كانوا في أعماقهم يعرفون أنَّ أولادهم يموتون عوضاً عنه، ولا يجرؤون على التفوُّهِ بحرفٍ، وهم يعرفون جزاء مَنْ يقف بوجهه، وبوجه سلطته هنا أو في العاصمة، كان الخوف جزءاً من وجودهم نفسه، ذلك الخوف الذي عاشه عليٌّ معهم، خوفٌ مُعقَّدٌ ومُركَّبٌ لا يفهمه، لكنَّه في ذلك اليوم سيعرفه! وعاودتْهُ ذكرى الحْمَيْرُوْنَة التي ردَّد بعض الأهالي بأنَّ رجال (الزين) أخفوها، لأنَّها بصقت في وجهه. الحْمَيْرُوْنَة التي يشعر أنَّه خذلها! لقد توقَّف عن البحث عنها بعد الأسبوع الثالث! لقد خُيِّلَ إليه أنَّه كان يراها تقف في أعلى قمَّة الجبل، وتناديه، وإحدى المرَّات قالت جارتهم إنها لمحتْها تنزل الوادي، وتختفي بين الأحراش، ثمَّ ظنَّ في احدى المرَّات أنَّه رآها تصعد شجرة المزار، وبحث عنها، ولم يجدها! نعم، يذكر أنَّه خذلها! ليس هو فقط، أهل القرية، أيضاً، انشغلوا بدفن أولادهم وإطعام ما تبقَّى منهم حَيَّاً! وأراد الانسحاب والهروب من حديقة القصر، وهذا العالَم

المُرتَّب والمُنظَّم، والذي تحوَّلت فيه الورود والأزهار إلى مثلَّثاتٍ ومستطيلاتٍ خضراءَ وأشجار قبيحةٍ، فقد شُذِّبت حتَّى بدت كجدرانٍ، حتَّى إنَّه لم يشمّ رائحة الأشجار، ولم يلمح الأغصان التي تحوَّلت إلى أصابعَ سجينةٍ كما ردَّد بينه وبين نفسه، ورأى، على الجهة المقابلة في زاوية السور الكبير الذي يحجب العالَم الخارجي، ويتطاول إلى أربعة أمتارٍ، طاولةً كبيرةً، تمتدُّ أمام بركة المسبح، حيث توزَّعت عليها أصناف فواكه، لم يرها في حياته، وتُظلِّلها مِظَلَّةٌ حجريَّةٌ، يعلوها قِرْمِيْدٌ أحمرُ. انقبض قلبه، وأمسك الشيخ بيده، وطلب منه التريُّث، وكان الشيخ من أولئك الناس الذين يمكنهم أن يروا ما لا يراه الآخرون، وأحسَّ بسواد قلب عليٍّ، وباضطراب تنفُّسه، وهمس له أنَّه في المساومة بين خيارَي الشرِّ الحَتْمِيَّيْن عليه أن يختار الأقلَّ شرًّا، وكان الرجال يتجمَّعون، فتقدَّم الشيخ، وحَثَّه على التقدُّم معه، وكان هناك مكانٌ آخرُ داخل السور، بيتٌ صغيرٌ بجانب القصر، بيتٌ مُكوَّنٌ مِن ثلاث غرفٍ، ينام الخَدَم فيه، وفكَّر بخالته التي قضتْ عُمُرها هنا! وظهرت النساء أمامه يطبخْنَ، وكان يسمع كلاماً وتمتمةً من أحد الرجال الذين يراقبون مجموعة النساء تلك، وكان عليٌّ يعرف نساء قريته، وهنَّ يُشبهنَ أُمَّه. يُشبهْنَها في انحناء الظَّهْر والأصابع اليابسة، ولا يُشبهْنَها في عناد الرأس، كان يعرف حينها أنَّه لا يحقُّ للنساء الوجود في أعيادهم الدِّيْنيَّة، في حالٍ لم يكنَّ طاهراتٍ، ومعرفته هذه جاءت بعد حادثة المَقَام البعيد، يعرف أنَّ على المرأة ألَّا تكون في دورتها الشهريَّة، لأنَّ هذا يُسمَّى نجساً، ولا يحقُّ لها أن تلمس النُّذُور.

انسلَّ من بين الجمع، وكان الشيخ مشغولاً عنه بمعاينة النُّذُور مع الشيخ الجديد الذي تزعَّم العيد، ولكنَّ شيخه العجوز تقدَّم بجُرأةٍ، ليُشرف على التوزيع العادل لحصص اللحم، ولوَهْلَةٍ فكَّر بما قاله الشيخ، ولِمَ يُطلقون

على هذا العيد اسم عيد الرحمة، كان عليٌّ يرى الشيخ على امتداد رُفْقَته له في أعيادهم الدينيَّة لا يأكل من الطعام، ولا يأخذ حصَّته من اللحم المنذور، وكيف يُخفي عن الناس مهمَّاته في توزيع اللحم على الفقراء. كان يقول لعليٍّ، علينا أن نحفظ ولو قليلاً ممَّا تبقَّى من كرامات البشر، وكان يفهم لِمَ يتسلَّل ليلاً بعيداً عن أعين أهل القرية، ويترك لهم كيسَ اللحم ذاك.

مع ذلك كان مهموماً!

كان (الزين) يقف أمامه، لا ينظر إليه حتَّى! تدور عيناه في مكانٍ بعيدٍ عن البشر المحيطين به، يرتدي (الزين) ثياباً رياضيَّةً، حذاءً رياضيَّاً أبيضَ، يتوهَّج تحت الشمس، سترةً قطنيَّةً بيضاءَ، ويتحرَّك بين رجاله باطمئنانٍ، ويدورون حوله، وتلمع أسلحتهم تحت الشمس، ولمعانها وحركتها بين أيدي رجاله يُحوِّلها إلى أشعَّةٍ منعكسةٍ حادَّةٍ، تنعكس على الأشجار المشذَّبة كجدرانٍ، وينظر عليٌّ إليها، ويُغمِض عَيْنَيْه. أراد أن يقول للشيخ إنَّه لا داعي لوجود هذه الأسلحة في هذا اليوم المبارك، ولم يجرؤ أن يقول هذا، وفَهِمَ لِمَ يفعل أهل القرية ما يفعلون، وبدأ بتذوُّق طَعْم الخوف، وكَرِه تلك اللحظة، وعندما انسلَّ الجمع إلى الداخل من أجل الصلاة، كان ممنوعاً عليه الدخول، فلحق بهم، ووقف أمام النافذة يراقبهم، كان الرجال قد اختفوا، وحلَّ صمتٌ وقورٌ، ودخلت النساء مع رَجُلَيْن بيت الخَدَم، ومضى وقتٌ لم يعرفه، كان تائهاً بينهم!

ربَّما يستطيع الآن، وهو جريحٌ وممدَّدٌ، ويسمع صوت الصمت أن يفكِّر بـ (الزين)، وبالخوف الذي يراه في عيون الآخرين من وجوده الحاضر

والغائب، كانوا لا يرونه إلَّا نادراً، لكنَّ سطوته باقيةٌ، وعليهم أن يهابوه ويخشوه كما فعلوا مع أبيه على امتداد عقودٍ مضت! (الزين) الذي كان قادراً على تحريك المشايخ والرجال المُدجَّجين بالسلاح، والذين يحملون موبايلاتٍ ضخمةً بأيديهم، ويُدوِّرونها بين رشَّاشاتهم، ويتبخترون بين الناس، بعضهم من أبناء القرية، وآخرون من القرى المجاورة، كانوا أكثر من عشرين رجلاً! لِمَ يحتاج رجلٌ مثله إلى هذا العدد من المرافقين؟! وماذا يفعلون معه؟! وكيف يعيشون؟! ومن أين يأتون بهذه الأموال كلِّها؟! كانت تُثقله تلك الأسئلة، ولا يريد أن يجعل من نفسه أضحوكةً، كان يخاف حتَّى الاقتراب منهم، ويشعر أنَّهم سيبتلعونه، كانوا يستطيعون فعل ذلك بنظرات عيونهم الجامدة كالحجر، والتي يرى فيها ذلك الاحتقار له ولأمثاله، بخلاف (الزين) الذي كان يتحدَّث بنعومةٍ ولطافةٍ، ويُحيِّي الجميع بابتسامةٍ، ولكنَّه لا ينظر في أعينهم، لم يكن يراهم حتَّى وهو معهم، ويؤدِّي واجباته في دَفْن أبنائهم، وفي ذلك اليوم الذي ترك فيه القصر الضخم، ولم يودِّع شيخه، كان قد قرَّر ألَّا يعود ثانيةً ويجتمع بـ (بالزين)، سيهرب من طريقه! لا يريد حتَّى أن يراه!

سيبدو ذلك النهار احتفاليَّاً منقطعاً عمَّا يحصُل حوله في قريته الجبليَّة النائية، سيبدو وكأنَّه من عالَم آخرَ لأيِّ شخصٍ يسمع به، وكأنَّ الحرب لا تتوسَّع في المُدُن وقُراها، ولا في شَمال البلاد وجنوبها! وكأنَّهم هنا يخوضون حرباً أخرى، تقتلهم من دواخلهم، ويموت الآلاف من أبنائهم فيها! ولا يعرف عليٌّ ما هي حقيقة هذه الحرب، تنهشه الأسئلة، ويؤرِّقه عدم اليقين بكلِّ ما يسمع!

كانت وسامة (الزين) تُخيفه أيضاً، لأنَّه يبدو صورةً كاملةً لإنسانٍ لا يُطال، لديه كلُّ ما يحتاجه، ليكون بعيداً عن هنا، عن مكانٍ يخرج منه الشباب أحياء، ويعودون بتوابيتَ، يقوم هو بدَفْنها، ويوزِّع على أهالي الأبناء الميتين قِطَعاً من اللحم، تُسكِت بطونهم الجائعة، ثمَّ خطر لعليٍّ أنَّه يأكل لحم أخيه، فارتعشت مفاصله لفكرته هذه، وطلب الغفران من ربِّه! ثمَّ نسيَه الشيخ في زحمة ذلك اليوم، ودخل مع الرجال إلى القصر، ومُنِعَ هو من الدخول، واستطاع الالتفاف والتملُّص من أعين الحرَّاس، ووقف إلى جوار نافذةٍ عريضةٍ مغطَّاةٍ بستائرَ كتيمةٍ، ولكنَّه نفذ بعَيْنَيْه من خلال شَقٍّ مائلٍ في وسطها، ورأى الرجال وهم يمسكون بأيدي بعضهم، ثمَّ رأى شابّاً يحمل البخور، كان ذلك اسمه قدَّاس البخور - أخبره الشيخ لاحقاً أنَّه وخلال سنواتٍ قريبة سيقوم هو بنفسه بتأدية طقس البخور - وحدَّق فيهم، وهم متماسكو الأيدي، ويتمتمون، وبدت الرؤية غير واضحةٍ من الشَّقِّ الصغير للنافذة. حاول عليٌّ قراءة شفاههم، رَغْم أنَّ الشيخ أخبره أنَّ مَن يسمع صَلاتهم السرِّيَّة سوف يُصاب بالطَّرَش، إلَّا أنَّه ظلَّ يحدِّق بما يفعلونه، كان ذلك اليوم المُبارك واحداً من أعيادهم الدِّيْنيَّة الاثنَي عشر، وهو الأقرب إلى قلب عليٍّ الذي كان يحلم باليوم الذي سيُسمح له بالدخول معهم، وقد انحلَّت أطرافه، ورفع يَدَيْه، وكأنَّه يمسك بأيديهم، ثمَّ أغمض عَيْنَيْه متخيِّلاً نفسه يرتفع عن الأرض، ويطير معهم، رؤوسهم متقاربة وأجسادهم عائمة في الفراغ على شكل دائرة، وقد فقأت دائرةَ طيرانه تلك صرخةٌ مُدوِّيةٌ لأحد الرجال: "شُو مَا تِعْمِلْ هُونْ، ولاااك؟!"، ثمَّ اقترب منه صاحب الصرخة، وأمسكه من يده، وأبعده عن النافذة، ورمى به أرضاً، ثمَّ داس على رقبته، كان يرى مقدِّمة حذائه، ولم يُغمِض عَيْنَيْه، ثمَّ أحسَّ بفُوَّهة الرشَّاش فوق رأسه، كان الرشَّاش يضغط على رأسه، والحذاء يضغط على رقبته، ويرتعش؛ "قُومْ اِنْقِلِعْ مِنْ هُونْ"؛ قال الرجل

صاحب الرشَّاش والحذاء الثقيل الذي ترك علاماتٍ حمراءَ على رقبة عليٍّ. يذكر عليٌّ أنَّه كان يرتدي في ذلك اليوم سترةً قطنيَّةً زرقاءَ، وأنَّ فُوَّهَة الرشَّاش كادت أن تخترق جمجمته لقوَّتها، وأنَّه سقط على الأرض، ونظر إلى السماء، ولم تكن كالحةً كما هي الآن وهو مُلقىً يستعيد تلك السقطة، وكان هناك رجلٌ يجلس إلى جانب الطاولة الكبيرة قرب بركة المسبح، يضع مسدَّساً إلى جانبه، ويفتح الكمبيوتر، ويراقب شيئاً ما، فترك مكانه، واتَّجه نحوه راكضاً، وصفعه! استعاد عليٌّ حينها وجه الحْمَيْرُوْنَة وهي تسقط أرضاً بعد أن دفعها رجال (الزين) في جنازة أخيه، وتملَّكه ذعرٌ لا حدودَ له، وعرف الخوف الذي يجمِّد الدم في العروق، وقام وركض خارجاً من حديقة القصر، وسمع قهقة الرجال وسخريَّتهم منه، ونسيَ شيخه، وهو يفكِّر بفُوَّهة الرشَّاش. كان يرى فراغ قلبه، وبذور الكراهية والحقد داخله، والتي يسمِّيها النِّقاط العمياء التي توسوس في النفس! كان يركض ويركض لاهثاً! رآه أهل القرية يركض وكأنَّه يطير! نزل المدرَّجات، ثمَّ صَعِد حتَّى وصل الجُرْف الصخريَّ، وهناك وقف. اقترب من الحافَّة. فَرَدَ ذراعَيْه، وكان يضع قَدَمَيْه على حافَّة الجُرْف، ولا يرى أمامه، ونسيَ عيد الغدير، والرحمة الواجبة بين الناس، واختفت الجبال والسماء وكلُّ ما حوله، كان يُغمِض عَيْنَيْه، ويفكِّر بجناحَيْن صغيرَيْن، قد ينبتان من ظَهْره، جناحان يطيران به، حيث لن يحتاج لأغصان الأشجار، كي يتمسَّك بها، وخطرت على باله خالته التي نبت لها جناحان، وطارت.

كان يريد أن يقفز! يريد أن يطير!

يذكر تلك اللحظة، عندما سمع صراخاً يأتي من بعيد، كان صوت نهلة التي لحقت به لاهثةً، تزعق بجزعٍ! نظر إليها بأسىً، وتراجع خطوةً إلى

الوراء، ولم يفكِّر بالقصر أو حتَّى بالشيخ الذي كان لا يزال برفقة (الزين)، واختفت رغبته بالطيران من فوق حافَّة الجُرْف ما إن لمحها تركض نحوه، وعرف أنَّ لعنة الأُمَّهات لا تعني الحبَّ فقط، بل قد تعني الحبال الكثيرة التي رُبِط عنقه بها.مكتبة

ظهر القمر أخيراً!

يراه، ويَسنُد رأسه إلى جِذْع الشجرة، ويسمع أصوات الحشرات من حوله، يرفع يَدَيْه بقوَّةٍ، فقد استفاق قبل دقيقةٍ واحدةٍ، ورأى أنَّ القمر يضيء الشجرة، ويا للغرابة! فقد بدا له أنَّه يرى بوضوحٍ أكثر في الظلام، ونسيَ الكائن خلف الشجرة، ولم يسمع صوته، فتوقَّف عن التنفُّس، ليدرك مدى قربه منه، ولم يسمع سوى صوت الحشرات والهَسِيْس، إنَّه يعرف مملكة الكائنات الخفيَّة التي تجري وتتحرَّك مِن حوله، وتخيَّلها قد صارت بحجمٍ كبيرٍ، وأضاءها القمر، ونمت أذرعها ... ستّ ... أو سبع أذرعٍ عملاقةٍ تزحف باتِّجاهه، وكانت هناك عينان حمراوان لحشرةٍ، يظنُّها جرادة، قد تحوَّلتا بفعل ضوء القمر إلى حفرتَيْن متوهِّجتَيْن بالنار، ثمَّ ظهرت ذبابة سوداء بأجنحةٍ زرقاءَ، وكانت تكبر وتكبر، ويرى العروق المنتشرة بين جناحَيْها الشفَّافَيْن، وفكَّر أنَّه ربَّما أخطأ، وما يراه هو الشمس، وليس القمر، أغمض عَيْنَيْه، وحكَّ بطرف إصبعه جِذْع الشجرة، فسمع صوت الاحتكاك، وشعر بالحياة، لأنَّ هناك مَنْ يقدر على الإحساس به، فقد تحرَّكت الكائنات الخفيَّة في الغابة بعد صوت الاحتكاك ذاك، وشعر بدبيبها فوق جسده، وهذا يعني أن ما يراه ليس هذياناً، لكنَّ دبيب الحشرات لم يكن عادياً، يشعر بها تحت ثيابه الثقيلة. أين تَدِبُّ في جسده؟ يستطيع أن يرى ضخامة أشكالها تطير مِن حوله، تبدو كوحوشٍ سوف تلتهمه، وهو يعرف أنَّها مجرَّد حشراتٍ تزحف، لكنَّ الرؤية أقوى منه. يجب ألَّا يخاف، لقد لاعبها فوق عِرْزَالِهِ، وفي رحلاته الخفيَّة للغابة قبض عليها، ومزَّق أجنحتها، وتفحَّصها، والآن هو أضعف حتَّى من تخيُّلها

وتذكُّر أسمائها، هي الآن أكبر منه، تدور حوله تحت ضوء القمر، ويلمح عيونها الناريَّة تحدِّق به. يمدُّ يَدَيْه، ويحيط بجِذْع الشجرة الضخم، فيتقشَّر باطن كفِّه عن جِلْدٍ مهترئٍ، ويقرِّبه من عَيْنَيْه، ويرى خيالاتٍ سوداءَ صغيرةً لحشراتٍ التصقت بجرحٍ عميقٍ، وقد كان قبل قليلٍ لا يرى ذلك الجرح، ثمَّ يرى أعضاء جسده، وقد انفصلت، ودارت حول الشجرة، يلمح كعبه المبتور، تسير قَدَماه، وتبتعدان عنه، يداه تتسلَّقان جِذْع الشجرة، ويا لدهشته! كان نصفه الأعلى يرتدي ثياباً أنيقةً ونظيفةً، ثمَّ رأى أباه إلى جانبه، كانا في الساحة ينتظران وصول أخيه من المدينة، كان يوماً استثنائيَّاً، فأحد أفراد العائلة سيدخل الجامعة! وكان يرتدي ذلك البنطال الذي يراه الآن يتحرَّك مع رِجْلَيْه، يلحق بكُمَّي قميصٍ، تتأرجحان أمامه، وتبدو منهما أصابعه، لم يرَ صدره ولا رأسه! نظر إلى اليمين، ثمَّ اليسار، علَّه يعثر على باقي جسده، ولم يلمح حتَّى خيالاً، ثمَّ رفع نظره إلى القمر، وكان لا يزال بدراً، وهذا يعني أنَّه لا يهذي، وأنَّ أعضاءه تتفرَّق أمامه وهو يراقبها، ولكنَّه ليس هو! وهل سيُصدِّق أنَّه ليس هو؟

تلك الثياب التي تطير مِنْ حوله مع أعضائه، يذكرها في ذلك اليوم. لم يحصُل يوماً على ثيابٍ جديدةٍ، كانت واحدةً من مواهب نهلة هي تدوير الثياب، كما تدوير الطعام والتراب والصخور وكلّ ما حولها، حتَّى الأسى. كان أبوه على غير العادة، يقف فخوراً، فهو ينتظر ابنه الأصغر مع ابنه الأوسط، كان قد دفن ابنه البِكْر منذ سنةٍ، ويذكر عليٌّ أنَّه كان يقف بجانب أبيه الذي لا ينفكُّ يردِّد كلاماً متقطِّعاً بانفعالٍ وبهجةٍ غير معتادةٍ، بأنَّ ابنه، فخر العائلة لن يكون مضطرَّاً للذهاب إلى القتال، سيصير طبيباً، كان يحدِّث عليَّاً، وكأنَّه يقابل غريباً عنه مشيداً بابنه، وعليٌّ لم يكن يهتمُّ به، وحتَّى الآن، بينما هو يَسنُد جِذْعه إلى الشجرة، لم يخطر على باله أبوه

حتَّى ظهرت أعضاء جسده تتراقص وهي ترتدي تلك الثياب، وهناك ربَّما قبل سنةٍ، وحيث وقف مع أبيه في ساحة القرية، كان الجمع يَضِجُّ وتُسمَع أصوات صياحٍ، رأى جارهم وهو يحمل موبايله بيده، ويتمتم بكلامٍ غير مفهومٍ، فقد كان بعيداً عنه، فاقترب عليٌّ منه، لأنَّ الرجل، وبينما يقوم بالتصوير، شدَّه رجلٌ آخرُ من كُمِّه، وصرخ به أن يكفَّ عن هذا الجنون والهُرَاء، فالبلاد في حالة حربٍ، وهنا أمسك أبوه بيده، ليمنعه من التقدُّم، ثمَّ تذكَّر أنَّ عليَّاً لم يعُد ولداً، ولم يعد قادراً على ضربه، وأنَّ الناس في الساحة يراقبون بعضهم، وهو الآن فخورٌ بأبنائه، ولن يدع مجالاً للشكِّ أنَّ ابنه الثاني هو رجلٌ بحقٍّ، فتركه يتقدَّم بين الجمع، ولحق به، واستطاعا أن يسمعا بعضاً ممَّا يدور من أحاديثَ، ظنَّا في البداية أنَّها جنازة أحد الشهداء، كانت السماء ملبَّدةً بالسحاب، والطقس المعتدل للجبل حسَّنَ مزاج الأهالي الكَرِب، وبدا العالَم بالنسبة إلى عليٍّ ضيِّقاً، فقد كانت الساحة تغلي برجالٍ من الجيش، وبرجالٍ يحملون الأسلحة، وبأطفالٍ، ونساءٍ، وشيوخٍ، وسمع رجلاً يتلو من ورقةٍ قراراً ما، أصدرتْهُ الدولة، قراراً يخصُّ مالكي الأراضي في قريتهم.

أفراد عائلته لا يَملُكون شبراً من الأرض، ولم يَفقِدوا رزقهم من تراجُع زراعة التبغ، بل من العمل أُجراءَ عند أصحاب الأراضي الذين يَملُكون مُدرَّجات التبغ، وهذا القرار الذي سمعوا به الآن، وكانوا قد وُجدوا هناك صدفةً، لم يكن يعنيهم، ولكنَّ عليَّاً كان ينظر بخوفٍ إلى جارهم العجوز الذي يتعرَّض للدَّفْش والصراخ، وربَّما قد يُضرَب، كان سيعود إلى عِرْزَالِهِ، ويترك هذا الضجيج كلَّه عندما بدأ جارهم العجوز يبكي، ويوجِّه خطاباً ما، بينما رجلٌ آخرُ يقوم بتصويره، كان العجوز يبدو كطفلٍ مذعورٍ وهو يتحدَّث، ويخبر كاميرا الموبايل أنَّه فَقَدَ ثلاثةً من أولاده، وقدَّمهم فداءً

للوطن والدولة والرئيس، وعليٌّ يعرف أنَّ جارهم الذي مات أولاده في جبهات القتال لم يكن يَملُك سوى أرضٍ صخريَّةٍ، حوَّلها إلى مُدرَّجات، يزرع فيها التبغ، ومع غياب أبنائه وتراجُع زراعة التبغ توقَّف عن العمل في الأرض. أشاح عليٌّ بوجهه، لأنَّه لا يرغب باستعادة اليوم الذي دفنوا فيه أخاه، وصرخ رجلٌ بأنَّ الدولة قرَّرت أن تستوليَ على أراضي المزارعين ظلماً وعدواناً، بحجَّة أنَّها مُهمَلَةٌ، وصرخ آخرُ أنَّ هذه ليست دولةً، وإنما عصابةٌ!

حاول عليٌّ الانسحاب من بين الحشد، فشدَّه أبوه من كُمِّه، إذ عليهما انتظار أخيه، وأحسَّ عليٌّ بالنحس والضيق من ثيابه هذه.

كان الشتاء قاسياً تلك السنة. وقد مضت ثلاث سنواتٍ على الحرب، وعليٌّ يرافق أباه في الأوقات القليلة التي يحصُلون فيها على فرص عملٍ كأُجراءَ مياومين في السهول، وكَرِه ذلك الدَّوْر بأن يكون الأخ الأكبر وأحد رجال العائلة، ولولا صراخ الرجال بالعجوز لركض، ولم يكترث، كان وسط القرية مزدحماً، وهو ليس ببعيدٍ عن المَقَام، وظهر رجالٌ غرباءُ، ولحقت بهم السيَّارات، ولم تكن الحْمَيْرُوْنَة هناك لتصرخ بهم كالعادة، وتفرِّقهم أو ليهزؤوا بها. بقي صامتاً، يستمع لشِجار المزارعين مع أحد مسؤولي الحكومة الذي تبيَّن أنَّ السيَّارات المصطفَّة في الساحة تخصُّه، والذي قال إنَّ المزارعين غير قادرين على استصلاح الأراضي، وإنَّ الدولة ستأخذ الأرض، وردَّ رجلٌ: "يالله ... عْطَيْنا الدَّوْلِة وْلَادْنَا وحَيَاتْنَا والدَّوْلِة عمْ تْسْرُقْ أَرضْنَا"؛ ويصرخ آخرُ: "يا حَرَامِيِّة"؛ مُوجِّهاً كلامه للمسؤول الذي لم يتبيَّن عليٌّ وجهه، فقد كان قصيراً ومُحاطاً بالرجال، وانضمَّت بعض النساء للجمع، وتذكَّر عليٌّ أنَّ معظم هؤلاء كانوا لا يَملُكون سوى القليل من الأرض، وأنَّه

لم يعمل لديهم في يومٍ من الأيَّام، وأنَّ بعضهم كان يرافقه وأبوه للعمل اليوميِّ المأجور، ولم يكن يريد سماع هذا كلِّه، لكنَّه اقترب من جارهم العجوز، ولحق أبوه به، ووقف إلى جانبه نافخاً صدره، ولم تصل الحافلة، ووَلْوَلَتُ امرأةٌ: "الله لا يْوفِّقْكِنْ، أَخَدْتُوا وُلَادْنَا وأَرضْنَا"؛ وأمسكها زوجها من كتفَيْها، وسحبها من الحشد، وابتعدا، ثمَّ استمرَّ العجوز يُصوِّر نفسه قائلاً: "واللهِ، لإِفْضَحْكِنْ، يَا حَرامِيَّة، واللهِ، لإِفْضَحْكِنْ، يا سَرَّاقِيْن"، وحينها فقط وصلت الحافلة، وكان عليهما أن يركضا لملاقاة الأخ المُنتظَر، وتركوا الحشد، ولم يلتفت عليٌّ ليرى ما حلَّ بجارهم العجوز الباكي، واندفع وأبوه لملاقاة أخيه المبتسم، وكانا حينها يطيران بخفَّةٍ، الأب فخراً بابنه، وعليٌّ لأنَّه سيعود إلى عِرْزَالِهِ، يتابع عمله في المدرَّجات الصغيرة مع نهلة، وسوف يخلع ثيابه الخانقة تلك. كان راضياً بأن يترك الساحة وضجيجها. كان شيئاً ممَّا يسمعه يرميه في هاويةٍ تسحقه، رؤية هؤلاء الرجال الذين يصرخون، الذين يبكون، الذين يتقاتلون، الذين يتضاحكون، رؤية المسؤول الحكوميِّ، ومعرفة ما لا يريد معرفته، كأنَّه يقول لنفسه هذا شأن أهل الأرض، وما لي شأنٌ به. كان يستعدُّ للاجتماع بشيخه العجوز، ليحصُل على بركته، ويأخذ عنه علوم دِيْنه. ويفكِّر بالوَلِيِّ صاحب الصورة، وبسيرة حياته، وكيف عاش وحيداً بين كُتُبه وأشجاره وصومعته، وكان يغذِّي أحلامه بقدرته على العيش داخل رأسه، وبين حدود ما لا يفهمه مِن حوله، لكنَّه يعرف أنَّه يُغضبه، لذلك كان على وشك أن يوجِّه لكمةً للمسؤول الحكوميِّ الذي أتى بسيَّاراتٍ ورجالٍ، ليأخذوا قطعة الأرض الصغيرة والوحيدة التي يَملُكها جارهم العجوز، ثمَّ بعد ذلك كان سيُمسك بجارهم العجوز، ويأخذ بيده راجياً منه العودة إلى بيته بعيداً عن الساحة، لكنَّه لم يفعل ذلك. كان ينأى بنفسه غير قادرٍ على الحركة،

ومختنقاً بالثياب التي بدا فيها كرجلٍ! كانت بدلةً ذات لونٍ كحليٍّ، مَكْوِيَّةً كحَدِّ الموس، وتحتها سترةٌ ضيِّقةٌ من الصوف، حاكتْها، أيضاً، أناملُ نهلة.

تفاصيل الثياب تلك كلُّها بدت واضحةً له، بينما أعضاؤه ترقص حوله، وأعادت له ذاكرة ذاك اليوم مع وجه أبيه المنشرح، ثمَّ فكَّر، لِمَ يرى تلك الثياب اللعينة؟ ولم يجد جواباً، إن كان هذا نوعاً من أنواع الموت أم أنَّه القرب من الحياة! وإذا كان عليه أن يموت الآن، فلِمَ يرى ذلك الحشد والصراخ لرجالٍ فقدوا أراضيهم وأولادهم؟! ولِمَ عليه أن يرى وجه أبيه الآن؟! وانقبض، فهذا فألُ نحسٍ، لأنَّ وجه نهلة غاب، وعاد وجه أبيه، ولم يكن يحبُّ النظر إليه، فاحتمى بالشجرة فارداً يَدَيْه حول جِذْعها، وتمنَّى لو يستطيع أن ينقلب بجسده، ويضمَّ الشجرة ويصعد، وهذا سيكون صعباً عليه، لأنَّه لا يزال يرى أعضاءه حوله، وكانت تبتعد عنه، وتتَّضح تحت ضوء القمر، ثمَّ ظهر جِذْعه طائراً أمامه، ورأى جسده يتحوَّل إلى أجزاء من الأعضاء، ويطوف حول الشجرة. هل يكون الموت على هذه الشاكلة؟ أيكون بأن نتحوَّل إلى أعضاء هائمةٍ، وربَّما أعضاء شفَّافة، تتماهى بالتراب والشجر؟ لكنَّ تلك الأعضاء التي يحفظها لجسده، لم تكن شفَّافةً! ثمَّ اقتربت يداه من صدره، وأغمض عَيْنَيْه، كان الذعر قد كَمَ تنفُّسه. أَنهضَتْه يداه، ولم يعرف إن كانت يديه فعلاً! وعاود التحديق خائفاً من النظر إلى الأعلى، حتَّى لا يرى رأسه طائراً، فرأى انعكاس ضوء القمر على أصابعه، واستقام بجِذْعه، ولكنَّه، وما إن استطاع الوقوف مترنِّحاً على رِجْلٍ واحدةٍ، حتَّى انهار مُلقياً رأسه على جِذْع الشجرة، واختفت أعضاؤه، ونظر حوله، وعرف أنَّه يتخيَّلها، فاستدار بجِذْعه، وتحسَّس عَقْصَةً ما في كعبه الناقص، أو لدغةً أو ... كائناتٍ صغيرةً ربَّما بدأت بأكل لحمه المُتشقِّق، لم يمرّ وقتٌ طويلٌ على جرحه حتَّى تأكله الديدان حَيَّاً، ربَّما هي مخاوفه

فقط! فأدار جِذْعه، واقترب بوجهه من الشجرة، وحينها سمع الصوت، صوت حركة الاستدارة وراء الجِذْع، إنَّه الكائن! فالتحم وجهه بالجِذْع، وأطبق بكامل جسده عليه، ونظر إلى الأعلى، ووجد قمَّة الشجرة لا نهائيَّةً، فتهالك، وانتبه إلى أنَّ القمر اقترب من قمَّة الجبل، حيث لا أثر لرائحة الفجر، وعلى الأغلب، وكما يعتقد، كانت تلك الرائحة ما تزال بعيدةً!

مكتبة

ولكنْ، ما هذا؟ غصنُ شجرةٍ؟

إنَّها يدٌ مبتورةٌ، تلمع تحت ضوء القمر! إنَّها على بُعْد ذراعَيْن منه! هذا جيِّد، فهي بعيدةٌ عنه! انسحب متراجعاً نحو الخلف، حركةٌ دائريَّةٌ واحدةٌ، وينقلب إلى الجهة المقابلة، ويظنُّ أنَّه صحا، فتَلمِسُ يدٌ كتفَهُ، وينظر إليها، فإذ بها يدُه! يدٌ على كتفَيْه وهو يرى يَدَيْه! هذا ليس حُلْماً ولا هذياناً، هل نبتت يدٌ ثالثةٌ له؟ ينزلق بجسده على الأرض، وتصير أغصان الشجرة فوقه، ويلمح القمر الذي لا يستطيع التسلُّل عبر كثافة الأغصان. هذه يده أم لا؟ يمسك بيده اليسرى ويده اليمنى، ويتحسَّسهما، ثمَّ يشدُّ شَعْره، ويتلمَّس وجهه وأنفه، ثمَّ يحشر أصابعه في فمه وبين أسنانه، ويُمرِّرها بهدوءٍ. إنَّها موجودةٌ كلُّها، وهو ليس واهماً! إنَّها عظامٌ حقيقيَّةٌ! ويستشعر جرحاً مفتوحاً في شفته العليا، يا للجُبن! يقول لنفسه، إنَّه مجرَّد خدشٍ، جرحٌ صغيرٌ اعتاده جسده، وهو يتنقَّل بين الحوافِّ الصخريَّة، ولن يكون ذا بالٍ، ثمَّ حاول أن ينحنيَ، ليتلمَّس ما بعد ركبتَيْه، ومنعه الألم ورائحة الدم، فغرس كعبه المبتور في التراب، ثمَّ انتشل الأوراق، وغطَّاه بها. سوف يصعد إلى الشجرة، إنَّها اللحظة المنشودة!

يحتاج التأكُّد من قوَّة الغصن الممتدِّ أمامه. ثبَّت كوعه، انقلب، والتصق بطنه بالأرض، ثمَّ زحف، وقرصه شيءٌ ما في منتصف صدره، واستغرب كيف تصل حشرةٌ إلى صدره وهو يرتدي ثيابه الثقيلة هذه، ثمَّ تذكَّر أنَّه فتح قميصه وبدلته العسكريَّة، وعبث ببطنه باحثاً عن جرحٍ. إنَّه لا يشمُّ رائحة الفجر، وعليه عندما يصل الغصن أن يُقفِل أزرار سترته حتَّى لا

تتسلَّل الحشرات، هو لم يَخَفْها يوماً، يخشى، فقط، أن تدخل جراحه! وتلك القرصات اللعينة تكاثرت، وكأنَّه سقط فوق وَكْر زنابيرَ، زحف ومَدَّ يده، وأمسك بأصابع اليد المبتورة وقد ظنَّها غصناً، كان قد نسيها. يدٌ حقيقيَّةٌ، لا غصن شجرٍ، ولا حتَّى هذياناً ما في عقله، لقد ظهرت هكذا في يده! أطبق عليها كغصنٍ، وكأنَّه يُصافح رجلاً ما، كانت هذه اليد الثانية التي صادفها، ثمَّ تخيَّل جبالاً، تَنبت بأصابع، تتطاول نحو السماء، وتيبَّسَ في أرضه، ورأى نفسه تمثالاً حجريَّاً، يمسك بيدٍ مقطوعةٍ، وأراد أن ينفخ على التمثال، ليتحوَّل إلى غبارٍ، ولم يقدر، وعاودتْهُ القرصات في أنحاء جسده كافَّة، وشَهَقَ، وتذكَّر حينها يباسه في ذلك اليوم عندما سمع طَقْطَقَة حَنْجَرته قبل شهقته، والآن سمع الطَّقْطَقَة نفسها قبل أن يستعيد قدرته على التنفُّس.

ذلك اليوم، كان وأبوه عائدَيْن من العمل في بساتين الحمضيَّات، حين أَوقفَهُما حاجزٌ. صَفَّهُم أفراد الحاجز لتفتيشهم. نزلوا طواعية، وسلَّموا هُوِيَّاتهم، كان مُتعَبَاً، ولا يحتاج سوى الوصول لعِرْزَالِهِ بعد نهارٍ طويلٍ، تؤلمه يداه المتشقِّقتان من ذراع المِجْرَفَة، صباح ذلك اليوم عارضت نهلة نزوله مع أبيه، وفضَّلت بقاءه في عِرْزَالِهِ، ربَّما كانت تعرف؟ فكَّر أنَّها حدسَتْ بكلِّ ما سيحصُل لاحقاً، ربَّما لهذا كانت تقفز حولهما، وترمي الأغراض بغضبٍ، بما فيها ثياب زوجها! ولم تُعدّ لهما الفطور كعادتها، وكانت تُحدِّق في السماء، وتُتَمْتِم بصوتٍ أعلى من المعتاد بأنَّ على ابنها أنْ يلتحق بالمَقَام، وأنَّ الشيخ ينتظره! دارت من حولهما وهما يهمَّان بمغادرة البيت، وقالت تخاطب السماء إنَّ عليَّاً سيبقى ليساعدها في نقل الحجارة، لصُنع مدرَّجٍ جديدٍ، تزرع فيه البندورة، وهي تحتاجه لحَفْر الأرض، وثَنْي الأغصان التي سيتمُّ تثبيتها بين الأحجار، ووضع شرائح البلاستيك فوقها ...

تمتمت ... وتمتمت ... وتحوَّل كلامها إلى ما يُشبه الغَمْغَمَة مُشيرةً إلى السماء مُولِيةً ظَهْرها لهما، فيما أصرَّ الأب أنَّ عليهما العمل طوال النهار، وأنَّ الله كفيلٌ بحماية ابنه، وسيكون أجرُهما مضاعفاً، لأنَّهما سيعملان لِوَرْدِيَّتَيْن، وأنَّه لم يحظَ بفرصة عملٍ منذ شهرٍ. لا يذكر عليٌّ ما قاله أبوه تماماً، لقد أراد، هو أيضاً، أن يحصُل على نقودٍ، فأخوه الأصغر قد بدأ سنته الأولى في الجامعة! لقد ظنَّ فعلاً أنَّ نهلة تبالغ في خوفها! وقد تذكَّر خوفها وهو واقفٌ في صفٍّ أمام الحاجز، وتذكَّر لحظة تيبُّس جسده بعد ذلك بينما يأخذونه، تلك اللحظة التي تحوَّل فيها إلى حجرٍ، وتشبه حالته الآن.

الحاجز لم يكن الأوَّل الذي أوقف الباص، لقد وقفوا عند حاجزٍ قبل دقائقَ فقط! وكان للميليشيات التي ظهرت مع بداية الحرب الحقُّ في إيقاف الناس والسيَّارات وكلِّ ما يتحرَّك ويَدِبُّ فوق الأرض، وعليٌّ وأبوه وكثيرٌ من أهالي القرى والمدينة كانوا لا يعرفون لِمَنْ تتبع هذه الميليشيات، والباص الصغير الذي توقَّف كان يُقِلُّ بعضاً من رجال الجبل الذين يعملون كأُجراء في السهل، كانوا اعتادوا هم وأهل السهل على تلك الميليشيات التي يقول عناصرها إنَّهم هنا لحماية الناس من الأعداء، ومن الإرهابيِّيْن، كانوا لا يتوقَّفون عن إطلاق النار في الهواء وهم يتنقَّلون، وهؤلاء الرجال المدجَّجون بالسلاح كانوا يُخفون الناس عن الوجود! كأن يختفي صاحب سيَّارةٍ فارهةٍ، ثمَّ يراه الناس مقتولاً ومَرمِيَّاً على الطريق، وتختفي سيَّارته معه، ويعرف الأهالي أنَّ هذه السيَّارة سُرقت، وإذا عثر هؤلاء على صيدٍ ثمينٍ، فكانوا يقومون باختطاف مَنْ يقود السيَّارة، ويسرقونها، ويطلبون الفِدْيَة من أهله. كان من الصعب على عليٍّ التفريق بين حواجز الميليشيات وحواجز المخابرات أو الجيش أو الشرطة، أو حتَّى العصابات التي تسرق، وتقتل، وتظهر لهم على شكل حواجزَ، بدا له العالَم

ضيِّقاً ملغوماً بالحواجز التي تظهر، وتختفي، ثمَّ تظهر، وتختفي. كان القاسم المشترك بينهم أنَّهم جميعاً يحملون الأسلحة، وعليٌّ كان يراهم في أثناء ذهابه للعمل مع أبيه، ولم يعتقد أنَّه سيقف أمام أحد هذه الحواجز يابساً كحجرٍ، وعدا عن طلب هُوِيَّاتهم وتفتيش الباصات لم يعتقد أنَّ أمراً سيفاجئه، كان قد أعطى في المرَّات الماضية التي نزل فيها للعمل مع والده هُوِيَّته بدون أدنى تردُّدٍ، وهو يفكِّر بأجرة اليوم الطويل الذي ستحصُل العائلة عليه، كان يُحدِّق في وجوههم، كانوا بشراً مثله، وربَّما هم من القرى المجاورة، والأمر الذي جعله يستذكر تلك اللحظة الآن هو أنَّه كان على وشك الاختناق، بينما أبوه يقول لهم بأنَّ ابنه الأوَّل استشهد، وابنه هذا سيلتحق عمَّا قريبٍ بالخدمة الإجباريَّة، وهو سيفعل، بالتأكيد ولكنْ، عليهم أن يعودوا للبيت الآن، وصمت باقي الرجال إلَّا واحداً قال: "يا رَجُلْ، ولادنا كِلْهِنْ على خْطُوط الجَبْهَة، اِتْرُكو بِحمايَة العَلِيِّ القَدِيْر"، وكان الأب حينها ينظر إلى عليٍّ، وعليٌّ ينظر إليهم، ويفكِّر أنَّه في حُلْمٍ، وأنَّه سيهرب مِن أمامهم، ويركض بأقصى ما يستطيع، ويصعد الجبل، ويختبئ في الأحراش، لن يتحوَّل إلى أشلاء مثل أخيه!

لن يتركهم يأخذونه، ليموت عوضاً عن (الزين)!

كان على وشك الركض عندما حصل ذلك الأمر! يفكِّر بأسلحتهم، هو ليس جباناً! يذكر أنَّه قال لنفسه إنَّه ليس جباناً حتَّى يُساق كعِجْلٍ للذَّبْح!

لكنَّ ذلك الأمر أَوقَفَهُ!

الذهول خطفه عندما أمسك أبوه بأحد رجال الحاجز من صدره، ورجاه أن يأخذوه بدلاً عنه، لقد رأى أباه كما لم يره يوماً، تضخَّم صوته، وتهدَّج، ولَعْلَعَت كلماته، وبدا أنَّه أكثر شباباً، ونظر إليه الرجال بترقُّبٍ، وأحدهم كان غاضباً منه، ويرمقه بتقزُّزٍ، واقترب رجلٌ آخرُ من الحاجز، وأمسك بأبيه من كتفه، ورماه، فوقع أرضاً، ثمَّ زحف أبوه، وركع جاثياً أمام الرجل الذي رمَاه أرضاً. يعرف عليٌّ أنَّ رجال الحواجز لا يقتحمون البيوت ويأخذون الرجال إلى الحرب، لم يكونوا بحاجةٍ لذلك، كانوا يتصيَّدونهم على الطُّرُقات، وكانت الفيديوهات التي يبثُّها التلفزيون الرسميُّ عن الأعداء الذين يَقتلون، ويَذبحون، ويَعيشون بينهم، كفيلةً بجعل الكثيرين يتطوَّعون بحماسةٍ للدفاع عن أنفسهم، أمَّا عليَّاً، فقد كان يفكِّر في ذلك اليوم الذي أَوقَفَهُم فيه الحاجز، بأن يتفرَّغ للاعتناء بالمَقَام، واستلام علوم دِيْنه، ناسياً أمر الحرب!

كان شيخه يثق بأنَّ عليَّاً جاهزٌ لهذا الأمر، وكان يرى نظرة عَيْنَيْه الساهمة وهو يجلس محدِّقاً ولساعاتٍ في صورة وَلِيِّه المُحبَّب داخل المَقَام، كان يراه فتىً حكيماً ورحيماً رَغْم غرابته، وقد قرَّر أن يُعلِّمه أسرار الدِّيْن عندما يشتدُّ عُودُهُ، وكان الأوان حينها مناسباً، وعليٌّ الذي قلَّب الفكرة في رأسه، كان يفكِّر ببيت الحْمَيْرُوْنَة، وكيف سيُحيِي ذِكْراها، سيُحوِّله إلى بيتٍ له في الأيَّام القادمة، ويخطِّط لإعادة ترميمه وتنظيفه حتَّى إنَّه بدأ يقرأ بعض الكُتُب التي جلبها له الشيخ، كان لا يكترث بسماع صوت الطائرات، ولا عويل الأُمَّهات ولا بجدالات أهل القرية، ولم يتعاطف مع جارهم العجوز، ويبقى إلى جانبه، يحميه من الدَّفْش والصراخ، حتَّى إنَّه بدا راضياً في الأسابيع الماضية التي تلت تلك الحادثة، فقد نجح في جعل أُمِّه تبتسم عندما رأت زهر الباذنجان الذي زرعه في المدرَّج

البلاستيكيِّ، وقد رأى ابتسامتها تلك! ورضاه اكتمل، عندما التحق أخوه بالجامعة، وحين اكتشف أنَّ أُخته الصهباء الصغيرة تحبُّ أن تجلس تحت جِذْع الشجرة، وتقرأ لساعاتٍ، وجد متعته الجديدة في الإصغاء إليها، فقد خطر لهذه الأُخت الصغيرة التي كبرت فجأةً أن تقرأ بصوتٍ عالٍ بين حينٍ وآخرَ، وطاب له الاستماع، حتَّى إنَّه كان يحثُّها على القراءة بصوتٍ عالٍ، فتظلُّ تقرأ ولا تتوقَّف حتَّى يهبط المساء، وكان يستمع إلى صوتها ساهماً في سمائه مترقِّباً الكلمات، كان يظنُّ أنَّ عالَمه اكتمل في ذلك الصيف، في الصيف ذاته الذي أَوقَفَهم فيه الحاجز، وقبَّل أبوه يدَ أحد عناصره، كان اثنان منهما قد قبضا على عليٍّ، وآخرُ يصرخ بأبيه واصفاً إيَّاه بالجبان، لأنَّه لا يمنح أولاده للوطن، وكان الأب يجيب أنَّه منح ابناً كَفَلْقَة القمر، وأنَّه وعائلته كلّها يفدون الرئيس والوطن، ولكنْ، عليهم أن يتركوا ابنه! وحينها انتبه أحدهم أنَّ عليَّاً لا يتكلَّم، ويتحرَّك بطواعية تشبه طواعية الحكماء الذين لا ينتظرون شيئاً، وقال أحدهم وهو الذي يمسك بكتفَيْ أبيه الراكع أمامه، ويحاول إنهاضه. "شَكْلُو اِبْنَكْ عَالبَرَكِة"! فردَّ الأب بحماسٍ: "صَحِيْحْ، واللهِ هُوِّ عَالبَرَكِة، وما رَحْ يْفِيْدْكِنْ بْشِي ... واللهِ، يا سِيْدِي، اِبْنِي هَادْ مَخْبُوْلْ، وينْ بَدكِنْ تاخْدُوْهْ؟"، وقبَّل ثانيةً يد الرجل، وبكى! فضحك الرجال، ثمَّ تهالك الأب ثانيةً، وحينها تقدَّم عليٌّ، ومشى، وجرَّ الرَّجُلَيْن المُمسكَيْن به دون أن ينطق بحرفٍ، ورقَّ حال مَنْ يركع أبوه أمامه، وأخبره أنَّهم يُنفِّذون القوانين فقط، لكنَّ الأب لم يتوقَّف عن الرجاء والتوسُّل، فنطق عليٌّ جملته بثباتٍ وهو يتقدَّم: "أنا رَايِحْ مَعْهِنْ، اِرْجَعْ عَالضَّيْعَة فَوْرَاً"، وبدا لهم رجلاً عاقلاً وناضجاً، ونظر إليه الرجال المصطفُّون والنساء والأطفال الذين يراقبون مِن داخل الباص، وأُعجبوا بالشابِّ الذي يعرف معنى الواجب الوطنيِّ، فرفع عليٌّ رأسه، واجتاحه الأسى، ونظر إلى السماء الرماديَّة، وكانت تلك جملته الوحيدة!

بعد ذلك لم يلتفت وينظر إلى أبيه مَرمِيَّاً على طرف الأوتوستراد بعد أن غادر الباص، كان ينتظر أن يقوم أبوه عن ركبتَيْه، ويعود إلى القرية، كان واثقاً ممَّا يفعله، ولم يعُد مهمَّاً له أنَّه ذاهبٌ إلى مكانٍ، يعود منه الرجال في توابيتَ، لم يعُد مهمَّاً له أين هو، حتَّى إنَّه نسيَ الجهات، وهو يتقدَّمهم بعد أن طلب منهم بأدبٍ أن يتركوه يمشي، فهو وحده سيصعد سيَّارتهم، ونظروا إليه بسخريَّةٍ، فقد بدا لهم هادئاً أكثر من اللازم، وكأنَّه يمثِّل دوراً بطوليَّاً، ومشى أمامهم، فأَوقَفَهُ أحدهم بينما كان يُكمِل خطواته مُولِياً ظَهْره لأبيه: "هِيْهْ، وِيْن رَايِحْ؟! السَّيَّارَة هُوْن مِن الجِهَة التَّانِيِّة".

استدار عليٌّ إلى الوراء! ورأى السيَّارة التي سيغيب فيها عن ناظرَي أبيه الذي ظهر واقفاً أمامه، وحدَّق أحدهما في الآخر، كان أبوه يرفع ظَهْره، ويقف، ويتطلَّع إليه لاهثاً، وقد تقوَّست قَدَمَاه، وانفرجتا، وانفردت ذارعاه على شكل نصف دائرةٍ، وكأنَّه سَيَثِبُ.

كانت المسافة تبعد مع كلِّ خطوةٍ، وبقي يلفُّ رأسه وعيناه مُعلَّقتان على وجه أبيه، مع ذلك استطاع، وبينما يختفي رأسه في السيَّارة، التقاط نظراتٍ يعرفها للمرَّة الأولى في عَيْنَيْه، تلك النظرات، نظراتُ الحبِّ كما يظنُّ. مكتبة telegram @t_pdf

يده لا تزال يابسةً، يظنُّ أنَّه يسعل، لكنَّه يبصق دماً. يسمع صوت الصدى، فينتفض، ويَقلِب جسده، وتنفلت اليد من أصابعه، ويسمع تكسُّر الأوراق، وقد ترافق مع حركةٍ خلف الشجرة. إنَّه الآخر يتحرَّك، وهو يقوم بالتفافةٍ حول الجِذْع، ربَّما! ينقلب على بطنه، ويصير وجهه مقابلاً للجِذْع. كان القمر فوقه تماماً، ولا يحتاج أن يقوم بأيَّة حركةٍ حتَّى ينظر إليه. قمرٌ إسفنجيٌّ، تتخلَّله عروقٌ، تتغيَّر في كلِّ مرَّة، يعرف تغيُّرات ألوانها. اليوم تبدو بلونها الأزرق والرماديِّ، فالسماء صافيةٌ، ونجومها كما هي لم تتغيَّر، لقد خُيِّل إليه منذ دقائقَ أنَّه رأى النجوم تتهاوى حول القمر الذي بدأت تضاريسه تتبدَّل أمامه، ثمَّ يقترب، ويطغى عليه، ثمَّ يبتعد ليصبح نجمةً، يقترب، ويبتعد مثل كرةٍ تقفز! كان يظنُّ أنَّه أكبر من ذلك، استدارته تتلاشى، ويبدو أنَّ حوافَّه تتمزَّق، ثمَّ صغُر جدَّاً حتَّى رآه بالكاد، بدا مثل لمعانٍ باهتٍ، يذوي شيئاً فشيئاً، ثمَّ اكتشف أنَّ عَيْنَيْه هما اللتَيْن تنوسان، وأنَّ القمر باقٍ على حاله، وانسدل جفناه، وعمَّ الظلام، ولم يَملُك القوَّة، ليفتح عَيْنَيْه.

ها هو يتأرجح في الشكِّ، وعدم اليقين من معرفته بوجوده! وكأنَّه يدور ويدور ويصل مبتغاه، ثمَّ ينطلق من نقطة البداية؛ لحظة صحوه الأولى حين لم يُدرك اسمه! تتساوى نقطة البداية والنهاية في رأسه! يعلو ويهبط في هاويةٍ، ثمَّ يعلو ويرتفع إلى القمَّة، مسحوباً بخُطَّافٍ لا مَرئيٍّ، يَقبِض عليه من قلبه، ويصحو من جديدٍ على رؤيا!

من أين تأتيه القوَّة وقد عاودتْهُ تلك الرؤيا؟! ليست رؤيا تماماً. صورةٌ مرَّت خَطْفَاً، كان أبوه قد وقف مقوَّس الساقَيْن، ينظر إلى الدوريَّة التي قبضت على ابنه، وفي عَيْنَيْه ذلك الماء الذي يسمِّيه البشر أسماء مختلفةً، لكنَّه يخرج من شَقِّ أعينهم، وأحياناً يتماوج فيها، أو يظلُّ حبيساً، ويرتدُّ إلى القلب، فيقتله، أو الدماغ، فيرجُّه ويفكِّكه، يومها رأى ذلك الماء حبيساً، وتلك التحديقة التي لم يحظَ بها في حياته، عرفها، خاف وارتجف بطنه. تأتيه القوَّة، ويحاول فتح جفنَيْه، ومن خبرته في نهاره الطويل كأنَّه حياةٌ كاملةٌ، عرف أنَّه سيدخل في إغماءةٍ، لقد فَقَدَ قدرته على أيِّ شيءٍ سوى شعوره أنَّه موجودٌ، عاد له وجوده مع خيالات تلك التحديقة، لكنَّ وجوده يعتمد على ما يشعره في هذه اللحظة المتلاشية. فَقَدَ قدرتَه على الشعور بأصابعه أو تحريك أيِّ عضوٍّ في جسده، وها قد رأى القمر! هذا كافٍ ربَّما! وعاودتْهُ صورة الحفرة العميقة التي رأى نفسه ينزل فيها، وعاد للظنِّ أنَّها قبره، وأنَّه فعلاً مات، وأنَّ ما رآه منذ قليلٍ مجرَّد أوهامٍ، ولم يعُد يفرِّق بين الحُلْم والهذيان، بين الذكريات والحاضر، صورة أبيه التي مرَّت خطفاً أرْبَكَته، ثمَّ أدرك أنَّ شيئاً ما سيجعله قادراً على رؤية ما حوله، حتَّى أوهامه سيكون راضياً أن يراها، ثمَّ رأى نفسه يمسك اليد المبتورة، ويرميها ويسقط في الحفرة اللعينة التي رآها بداية النهار. كان قد نسيَ أنَّه رأى نفسه في حفرةٍ، وأنَّ تلك الحفرة كانت قبر أخيه، حتَّى وجه نهلةَ كان قد غاب، وعاد للظنِّ أنَّه مجرَّد عينَيْن فقط، وهبَّت نسمةٌ، هبَّت رائحةٌ ما يعرفها، رائحة الفجر، والقمر يترك ظلالاً بنفسجيَّةً على ما يراه، ويدرك أنَّه يعرف هذه الرائحة، إنَّها إحدى بناتِ الريح كما يصفها، فانتعش وتنفَّس بعمقٍ، وفتح عَيْنَيْه، ورأى رموشه مثل قضبانٍ سوداءَ عملاقةٍ أمامه، وهكذا ببطءٍ انشقَّ جفناه، وغمره القمر، وكان كبيراً واضحاً أكثر ممَّا ينبغي، ولكنَّه ليس كقمره المعتاد، والذي يعرف حركاته ومساراته، ويحفظ

وجوهه وتقلُّباته، ويظنُّ أنَّه أقرب إليه أكثر من البشر كلِّهم. القمر طَرِيٌّ، ومُعلَّقٌ في أعلى السِّنْدِيَانَة، يضيء ما حوله، هذا هو إذنْ، كان القمر هنا من أجله، وعاد ونسيَ نفسه لدقائقَ، ثمَّ عرف أنَّ القمر أتى إليه.

القمر لم يكن قريباً كما ظنَّ، إنَّها الشجرة! والقمر مُعلَّقٌ في أعلى أغصانها، وهو ينظر إليهما، وقد نام على ظَهْره، وقد ظنَّ أنَّه ينام على بطنه مقترباً من الشجرة، لكنَّ الحقيقة التي عرفها بعد ثوانٍ أنَّه كان ينام على ظَهْره قريباً من الجِذْع، وأنَّ القمر واضحٌ، ويقترب منه، ويضيء له الدرب، وهو كان يستطيع في لياليه الماضية أن يمتطي القمر، ويُحوِّله إلى أشكال مختلفة! وعندما يكون هلالاً، يعرف كيف يُحرِّك جسده فوقه، وعندما كان ينام في عِرْزَالِهِ، وتحجب الأغصان ضوءه، فيتحايل عليها، ويُحرِّك جسده، ويُغمِض عَيْنَيْه، ويتأرجح، ويقول للقمر: هيَّا! ويحثُّه على الركض في السماء، وهو يعتليه، ولكنَّ القمر بدرٌ الآن، ولا يستطيع التأرجح فوقه، وكان يخطر في باله لو أنَّه أراد، وهو مُعلَّقٌ في قمَّة جبله فوق عِرْزَالِهِ مخاطِباً القمر، لو خطر بباله فقط، أن يتأرجح فوقه وهو بدرٌ، لَرَماهُ إلى أبعد نجمٍ، فقد تخيَّله إسفنجيَّاً مطَّاطيَّاً وهو في حالة البدر، ومائيَّاً هوائيَّاً في حالة الهلال، ولطالما عرف أنَّ هناك أخطاء كبيرة فيما يخصُّ الحديث عن القمر الفضِّيِّ، فهو غير موافقٍ على أنَّ لون القمر أبيضُ، كان يظنُّ أنَّ لونه أزرقُ، وأنَّ السماء هي مَنْ تمنحه تلك الزرقة، وليس الشمس كما تعلَّم في مدرسته، وكان يرى، بوضوحٍ في بعض الأحيان، التضاريس البعيدة له، ويفكِّر أنَّ هناك أحداً ما ينظر إليه في الجهة المقابلة، وهو لطالما صدَّق أنَّ القمر هذا مجرَّد خيالٍ، ومجرَّد نورٍ كبيرٍ، لا لون له، ولا شكل، ولا رائحة، ولا طَعْم، ولم يُصدِّق ما يُقال له عن القمر، وما يسمعه أو ما يراه في التلفزيون، طبعاً في تلك الأوقات القليلة التي

كان يضطرُّ فيها إلى مشاهدة التلفزيون مع أُخوته، فهو يكره هذا الجهاز، حتَّى إنَّه لم يكن يطيق الموبايل الذي حظيَ به أخوه، وهو يُفضِّل عِرْزَالَهُ، ويراه تلفزيوناً من نوعٍ آخرَ، وشاشته أوسع وأكبر، تُطلُّ على الكون كلِّه، وكان يستطيع أن يشير بإصبعه إلى أعمق نقطةٍ يراها، حيث يلتقي البحر بالسماء، وحيث تتلألأ قطعةٌ صغيرةٌ من البحر أمامه، وهو واقفٌ في عِرْزَالِهِ. كان يأتيه القمر، فبيتهم جارُ القمر. ينظر إلى تلك المساحة الغريبة التي يعكسها سطح البحر، يتأمَّلها، فتبدو لامعةً كمرآةٍ، تضيء له العالَم من بعيدٍ، وهذه المرآة التي تتشكَّل في نهاية الأفق، كانت الشاشة التي يسمِّيها تلفزيونه الخاصَّ، وكان يقول لنفسه إنَّه سيذهب يوماً إلى هناك، إلى أبعد نقطةٍ في الأفق، كان هذا أحد أسراره، عموماً هو لم يكشف أسراره لأحدٍ عدا بضع تساؤلاتٍ بينه وبين نهلة والحْمَيْرُوْنَة. لطالما احتفظ بأفكاره وأسئلته داخل علبةٍ مغلقةٍ، وهو الآن داخل تلك العلبة؛ رأسه.

حانت منه التفاتةٌ، أَرَتْهُ تَيْنِكَ القَدَمَيْن أمامه، قَدَمَي الآخر، ولم يكن واضحاً مِن هاتَيْن القَدَمَيْن إنْ كان الكعب مبتوراً، فَرِجْلٌ سليمةٌ، وأخرى تخفيها الشجرة، لكنْ، لا بدَّ أنَّ القمر يُضيئهما، وسَحَبَ نَفَسَاً عميقاً، وقرَّر أن ينقلب على بطنه، وألَّا ينظر إلى الجهة المقابلة. قلب جسده، وسقط على الأرض، شعر أنَّه طار، وهوى، وامتلأ فمه بالتراب، وخدشت عَيْنَيْه بقايا الأغصان. كانت سقطةً قويَّةً، لم يحسب لها حساباً، واعتقد أنَّه أضعف مِن أن يُحرِّك جسده بتلك القوَّة، فينبطح على الأرض، ويزحف على كوعَيْه، مُصغِياً لصوت طحن الأوراق والضجَّة الغريبة وراء الجِذْع، ولم يبالِ للأمر، وقرَّر أنَّ أيَّ كائنٍ سيقترب منه سيُمزِّقه بأسنانه، وصرَّ على أسنانه، فهو لا يزال يَملُك القوَّة، وإلَّا فما معنى أن يقدر على قلب جسده بهذا الاندفاع؟! وانتبه أنَّه فَقَدَ ضوء القمر. لم يره! هو يعرف أنَّ الضياء

الأزرق المحيط به يعني أنَّ القمر لا يزال فوق الشجرة، وهو ينتظر أن يتقدَّم، وإذا تقدَّم، وصار عند الجِذْع لن تسمح الأغصان بأن يُضيءَ له ما يراه، وهذا يعني أنَّه وصل الجِذْع، وقد حجبت الأغصان القمر. لقد أدَّى مهمَّته، هذا القمرُ، يقول لنفسه! كما كان يفعل في الليل عندما يقرِّر أن يتسلَّل من عِرْزَالِهِ، ويهيم في ليالي الغابة والأحراش حتَّى مطلع الفجر.

تقدَّم قليلاً، وتقدَّم الكائن الآخر. لقد عاد وسمع الحركة، ورأى رَغْم الليل حركة الحشرات التي تدور مِنْ حوله، رأى هياكلها السوداء وهي تُصدِر ذلك الصوت، بينما تهيم أرجلها الدقيقة فوق الأوراق، وأحسَّ بقرصاتٍ في بطنه، هو بخيرٍ، إذن، ولن يكون مفيداً له التفكير برائحة الدم، وبكعبه المبتور أو جروحه التي لا يعرف عنها شيئاً، والتي يظنُّ أنَّها بسيطةٌ. يرتجف ويتعرَّق، ويشعر أنَّه سينفجر من داخله، وأنَّ غلياناً يفور ويفور. لماذا لم يأتِ أحدٌ لإنقاذه؟ ثمَّ يطرد تلك الفكرة مِن رأسه، فهو يعتقد أنَّ ذلك سيجعله يتوقَّف عن محاولة صعود الشجرة، يذكر أنَّه رأى الطائرة تُحلِّق فوقهم، ويذكر أنَّه كان ينظر إليها لحظة سقوط القذيفة!

ولكنْ، لِمَ لَمْ يأتِ أحدٌ لإنقاذه؟

يطرد وساوسه، يُكلِّم نفسه بأن يتوقَّف! وترتجف شفتاه، ثمَّ يتعرَّق. وينهر نفسه ثانيةً! كان في تلك اللحظة لا يريد حتَّى أن يَلمِسَ مكانَ ألمٍ يحرقه في أُذُنه، اعتقد أنَّه خدشٌ. مرَّر أصابعه عليه بخفَّةٍ، ثمَّ تركه، وهو لو فكَّر الآن بذلك الألم العميق الذي عرفه، لاكتشف أنَّ أُذُنَهُ طارت مع القذيفة الخطأ، مثل كَعْب رِجْلِه، لكنَّه لم يفكِّر بالأمر حتَّى، عليه أن يكون رجلاً، وهو لا يزال يَملُك أسنانه التي يُعاوِد الصَّرَّ عليها.

سيُمزِّق بهذه الأسنان مَنْ يقترب منه، سيأكله، سيَعُضُّه كما تَعُضُّ الضِّباعُ الجِيَفَ!

الآن عليه أن يَحضُن جِذْع الشجرة، ثمَّ يتقدَّم، وفعل ذلك، وتقدَّم، وعندما اصطدم رأسه بالجِذْع، ارتاح وسمع أصواتاً غريبةً، ورفع يده، رفعها بقوَّةٍ، وأمسك بجِذْع الشجرة، ثمَّ احتضنه، ومرَّر أصابعه على القشر القاسي، ثمَّ وقف على ركبتَيْه. كان نصف واقفٍ، وما عليه إلَّا أن يمدَّ ذراعه الثانية، كان يبدو مثل مارِدٍ تشكَّل من ذرَّات التراب وأوراق الشجر، يرفع يَدَيْه عالياً، لَاوِياً أعضاءه، وكأنَّه ولَّد نفسَه من نفسِه، وخرج منه شخصٌ آخر سليماً معافىً بكامل إنسانيَّة جسده. يَلمِس الغصن الأوَّل القريب، وكانت الأغصان لا تتحرَّك رَغْم أنَّ الفجر عندما يقترب يأتي مصحوباً ببرودةٍ عذْبةٍ في الجبال، ومُحمَّلاً بنسماتٍ تُحرِّك الأوراق، الأغصان لا تتحرَّك، لأنَّها ضخمةٌ، لكنَّ الأوراق لا تتحرَّك أيضاً؟ لقد وجد هذا غريباً! وفي تلك اللحظة يُدرك أنَّه يمسك الغصن بقوَّةٍ، وكان يرى أمامه الأغصان الأخرى، ويرى جذورها في رأسه، وفي قلبه هكذا مثل خارطةٍ معقَّدةٍ لمقطعٍ تشريحيٍّ في كتابٍ عن الشجر والجذور قرأه في مدرسته، وكان يعرف أنَّ الجذور تحمله إلى الأغصان، وهو قادرٌ أن يكون جزءاً منها، وهو ليس واعياً بقدرته على التفكير تلك، كان فقط يفعل ما فعله دوماً في حياته الاعتياديَّة، وهو ما جعله يشعر أنَّ تلك القوّة التي ستأتي فجأةً هي سريرٌ من جذور الأشجار يحمله ويهزُّه في الليالي، فيرتفع بجسده، وتتمسَّك يداه بقوَّةٍ بجِذْع الشجرة، ويتقدَّم مثل سحليَّةٍ تتعربش على حائطٍ، رَغْم أنَّ الألم الحارق كان قد استفحل، وكان ينطلق من كعبه، وينفجر في رأسه، ويتوزَّع حول أُذُنَيه، فيلتحم بالجِذْع، وكأنَّ صمغاً جمع بينهما، ثمَّ أنصت للصوت المُقابل، وكان مألوفاً.

يتجاهل الصوت، ويصل بداية تفرُّع الأغصان، ولم يرتجف، ويسحب نَفَساً عميقاً، ويمطُّ جِذْعه، ثمَّ يرفع يده، ويَمِسُّ بأصابعه الفرع الأوَّل للغصن، وحينها كان نور القمر لا يصل إليه، والأغصان الكبيرة ما تزال بعيدةً عن أصابعه أبعد ممَّا تخيَّل، ويشدُّ جِذْعه كما جِذْع الشجرة، ولم يستطع وهو يُحرِّك جسده على طريقةٍ يعرفها، بأن يدفع بنصفه الأعلى إلى الأمام، فيمطُّ برِجْلَيْه عبر لَيّ جسده والاندفاع قُدُماً، وهو يقوم بذلك الالتواء، تراخت أصابع يَدَيْه وعضلات فخذَيْه، وسقط من الجِذْع، ثمَّ تدحرج بفعل السقطة، وانقلب عدَّة مرَّاتٍ، وهناك وجد نفسه من جديدٍ في ذلك المكان، قرب أكياس الرمل الممزَّقة، وتحت ضوء القمر، ينظر إلى الشجرة التي بدَتْ بعيدةً.

لم يعرف إن كان ضوء القمر مَن يفعل ذلك أم أنَّ الخيالات مَنْ جعلتْهُ يرى الكائن الذي تدحرج، وصار رَغْم ذلك واضحاً له. وهنا سمع صوتاً من داخله. ضجيجٌ وزعيقٌ، لم يعُد يسمع أصوات الحشرات، ولا حتَّى الأغصان المتكسِّرة، أو يرى القمر الذي اكتمل في عَيْنَيْه، لأنَّ حَدَقَتَيْه أخذتا بالاتِّساع، وعاد ليقوم بحركته الهوائيَّة تلك: رفع يَدَيْه إلى السماء، وغَمغَمَ، وصرخ، ثمَّ وقف منحنياً، وركض باتِّجاه الشجرة فاتحاً ذراعَيْه لغصنها الأقرب العريض، والذي كان هدفه. كان لا يزال في تلك اللحظة لا يرى جسده الناقص هنا وهناك، لا يرى أيَّ شيءٍ سوى تلك الزرقة والضياء الممتزجَيْن بخيوطٍ لامعةٍ من الضوء، بدَتْ واضحةً له، وانفلتت من كثافة الأوراق واشتباك الأغصان، وبدَتْ كأذرعٍ ممتدَّةٍ نحيلةٍ وطويلةٍ لكائناتٍ أُنثويَّةٍ هلاميَّةٍ تناديه، وتُمسك بأطراف أصابعه، ثمَّ تنفذ خيوط الضوء الأزرق، وتنير حركة الهواء التي أثارتْها حركة الأوراق والغبار، ويبدو بوضوحٍ كعب بُوطِهِ العسكريِّ المفتوح على جرحٍ عميقٍ أكبر مِن أن يُسمَّى نقصاناً، كان

تهشيماً من ذلك النوع الذي تَنِزُّ منه الدماء على مهلٍ، والتي لم يرها، ولكنَّها تناثرت هنا وهناك تحت خيوط ضوء القمر البنفسجيَّة، لكنَّه لم يكن يَقِظاً كفايةً، فقد قفزت قطرات الدماء تلك معه، ثمَّ تحوَّلت إلى أشعَّةٍ قمريَّةٍ، أمَّا هو، فقد وثب نحو الغصن مُحدِّقاً فيه بعينَيْن حجريَّتَيْن. كان على وشك الطيران!

إنَّه الغصن، يمتدُّ أمامه عالياً!

يرمي بنفسه نحوه غير عابئٍ بذلك الآخر الذي يفعل الشيء نفسه! يتكثَّف وجوده في ذراعَيْه اللتَيْن استطالتا، وانفردتا.

ينقضُّ بقوَّة، ليصيب الهدف.

إنَّه يمسك بالغصن.

إنَّه يطير.

مكتبة telegram @t_pdf